مطبوعات كتابي

يصدرها حلمي مراد

لوكريشيا بورجيا

للمؤرخة الروائية المعاصرة

جوان هاسليب

طبعة فاخرة محلاة

بصور تاريخية نادرة

چوان هاسليب :

لوكريشيا بورجيا

LUCREZIA BORGIA

BY

JOAN HASLIP

الثمن ١٢ قرشا

مجموعة كتـــابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ستة وتسعون كتابا ، يضاف اليهـــــا كتاب جـديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها تسعة وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتـــويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .

ولمن شاء ان ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عـادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك القاهرة ، او تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ارسال القيمة بحـــوالة بريدية .

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب التاسع والخمسون

لوكريشيا بورجيا

ترجمة : زكى شنوده المحامى

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون ٥٩٥٥٦

عزيزي القارئ ..

تعمدت - فى هذه المرة - ان اقدم على شيء من التنويع فيما اقدمه لك فى « مطبوعات كتابى » ، حتى لا تكون هذه السلسلة قاصرة على القصص والروايات ، وهى التى صدرت لتقدم لك الترجمة الكاملة الامينة لشوامخ الكتب العالمية ..

لذلك اخترت لك كتابا تاريخيا ، تناول حياة امراة لا اعتقد ان خيال اى كاتب روائى استطاع ان يخلق مثلها - فى الحسن والغواية والدهاء - وحياة اسرة لعبت دورا خطيرا فى تاريخ اوربا عامة ، وايطاليا - بوجه خاص - فى القرن الخامس عشر ، وفى بقعة من اقدس البقاع .. واستطاعت بالدسائس والاجرام ، ان تستغل منصبا من ارفع المناصب الدينية - هو منصب البابوية - لبلوغ اغراض لا يقرها عرف ولا شريعة ، واطماع لا تبيحها قوانين سماوية ولا ارضية ..

ولقد استقت المؤلفة الحقائق من اوثق المصادر والمراجع التاريخية ، استنادا الى وثائق ومستندات لاتزال محفوظة .. ثم صاغتها فى اسلوب قصصى بديع ، وتسلسل روائى رائع ، بحيث تحمل القارىء على ان يمضى فى القراءة مشدودا اليها ، مستمتعا بها ، وهو ينعم بالفائدة الثقافية ، وبالترويح الذهنى فى آن واحد ..

وبعد .. لن اطيل ، لأدعك تخلو الى هذا الكتاب الطريف ، الذى ضم معلومات ينبغى ان يعرفها كل مثقف ، عن مرحلة هامة من مراحل الحضارة البشرية .

المحرر

مقدمة

• الى الجنوب من (فالنسيا) ، وفى الطريق المفضى الى (أليشانتى) ، تقع (جاتيفا) .. وهى مدينة صغيرة حالمة ، تكسوها غلالة رقيقة من البساطة والبهجة . وقد بقيت هكذا ، فما تغيرت الا قليلا ، منذ الأيام التى أقبل فيها « دون جيم » ـ أمير اراجون ـ منحدرا على رأس فرسانه ـ من الشمال ـ كى يحرر (فالنسيا) من غزاتها المراكشيين، فى القرن الثالث عشر ..

فمنازلها الجميلة مازالت محتفظة بطابعها المراكشى .. وقصورها الزاهرة ، مازالت تتهلل باغنيات الماء الصافى ، اذ ينساب فى غدرانها .. وهى محوطة بأحراش البرتقال وشجيرات اللارنج ، وتقوم على حراستها فوق التلال حصونها العريقة الباسقة ..

ومع فرسان « دون جيم » ، أقبل ـ فى تلك الأيام ـ آل بورجيا ، هاجرين معاقلهم القوية على مشارف (نافارى)، كى يستوطنوا (جاتيفا) ، وينحتوا على تيجان أبوابها المراكشية ، صورة شعارهم .. «الثور الأسبانى»، ويرفعون فوق ذراها علمهم القوطى ، رمزا لشرفهم ، ومجدا لعاهلهم « سان فيليب » ..

وطوال مائتين من السنين ، عاش آل بورجيا مواطنين مسالمين ومخلصين (لجاتيفا) .. حتى أقبل عام ١٤٤٠ ، حين سعى «ألفونسو الثانى» ـ ملك الاراجون ـ الى الجلوس على عرش (نابولى) .. فرافقه الى ايطاليا ، سميه « **ألفونسو بورجيا** » ، مستشار كاتدرائية (ليريدا) ، كى يكون وكيل قصره ، وكاتم سره ..

وهنالك ، وسط أكبر ميدان فى (جاتيفا) ، مازال يقوم

تمثال « بورجيا » : **الرجل الذى بدأ حياته مستخدما متواضعا ، فى حاشية ملك الاراجون ، ومات وهو يزين رأسه بتاج البابوية الرفيع !**

ذلك لأن ايطاليا كانت ـ فى ذلك الحين ـ دولة مزقتها المشاحنات الحزبية ، وحطمتها عوامل الشقاق والخلاف .. دولة لم تكن تعرف شريعة سوى قوة الحكم الفردى ، ولاتخضع لغير ارادة الحاكم الفرد .. ايا يكون هذا الحاكم ، مادام بوسعه ان يستولى على الزمام !..وبينما كان الاجانب ـ من امراء (آنجو) و (اراجون) ـ يتنازعون تاج نابولى، كان البابا ـ وهو صاحب السلطة المدنية والدينية ـ يتشبث بتاجه فى خوف وهلع ، اذ كان عرضة لأن ينتزعه أى جبار داهية !

ووسط الخلافات والمؤامرات والدسائس ، استطاع « الفونسو بورجيا » ان يكون جبارا داهية ، وان يستولى على تاج البابا ، وان يتسنم عرشه ـ فى سنة ١٤٥٥ ـ باسم **البابا «كاليكستوس» الثالث**..ولم يكن قد انقضى غير عامين على سقوط القسطنطينية ، وتداعى عروش اوروبا لانهيارها !

***

وكان لزاما على «كاليكستوس الثالث» ان يحيط نفسه بأشخاص يثق فيهم ، ويطمئن الى ولائهم ، ويستطيع ان يكشف أعمق اغوار نفوسهم ، حتى يظل مستوليا على السلطان .. **ولكن هذا الاحتياط كان عين العلة التى ادت به الى ان يضرب أشنع مثل لمن خلفوه على كرسى البابوية !**

ولقد بدأ هذه السياسة منذ كان كردينالا .. اذ استخدم نفوذه فى تعيين اقربائه اساقفة فى بلاط البابا ، وقادة فى الحرس البابوى .. وكان اكثرهم توفيقا وحظا ، هما ولدا

اخيه : ((**بيدرو لويس**)) ، و ((**رودريجو بورجيا**)) ، اللذان ولدا فى ذلك المنزل العتيق ، الذى مازال قائما فى (جاتيفا) ..

وكان اصغرهما ــ رودريجو ــ قد قضى سنوات فى الخدمة العسكرية ، قبل ان يحذو حذو عمه ، فينخرط فى سلك الكهنوت .. حتى اذا جاء الوقت الذى نجح فيه ((الفونسو بورجيا)) فى بلوغ كرسى البابوية ، كان هو قد استكمل فعلا دراسته اللاهوتية فى جامعة بولونيا ، فأصبح ــ وأخوه ((بيدرو لويس)) ــ على أهبة الاستعداد لتقلد المناصب اللامعة فى البلاط البابوى ..

وفعلا ، ما انقضى عام واحد على جلوس ((كاليكستوس)) على كرسى البابوية ، حتى **رفع ((رودريجو)) ــ الذى كان بالكاد قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره ــ الى منصب كردينال (فالنسيا) ، ومستشار الكنيسة** .. اما ((بيدرو لويس)) ، فقد جعله قائدا للقوات البابوية ، وحاميا لمدينة روما !

ولم يقدر للدور الذى لعبه ((بيدرو لويس)) ــ فى قصة آل بورجيا ــ ان يكون كبيرا ، فقد انتهت مهمته وأهميته ، بانتهاء حياة عمه البابا : اذ ماكاد كاليكستوس الثالث يتناول السر المقدس ، ايذانا بموته ، حتى خرج ابن اخيه الصلف المتعجرف مطرودا من المدينة.. مشيعا بالهتاف الذى انبعث من الحناجر : ((يسقط الأسبانى البغيض)) !

أما رودريجو ــ وقد كان يومذاك محتميا فى مخبئه بالفاتيكان ــ فقد اجتاز العاصفة .. اذ حصن نفسه بين جدران قصره ، بينما انطلقت البغضاء نحو الأسبانيين ، ملهبة بسوطها عاصفة الهياج والشغب ، التى راحت تهزم وتدمدم فى أنحاء المدينة ..

وما كان لأى رجل ، يقل عن ((رودريجو)) صلابة ونجابة ،

ان يصمد تحت وطاة الجماهير الثائرة .. ولكن «رودريجو» لم يكن قويا وذكيا فحسب ، ولا كان مجرد رجل خلاب ، يدير عقول الرجال والنساء على السواء .. **وأنما كان ـ فوق ذلك ـ ينطوى فى اعماق نفسه على طبيعة الحرباء : تلك الطبيعة التى كانت تمكنه من أن ينلوى ، وأن يتلون طبقا لمقتضيات الأشخاص والأشياء** .. ففى كل زمان ، ومع كل انسان ، نجح ذلك الرجل العجيب فى أن يؤدى وظيفة المستشار لأربعة بابوات متعاقبين ..

نعم .. نجح فى أن يبقى اثيراً بعد عمه ـ وان يؤدى هذه الوظيفة الدقيقةلأربعة رجال شديدىالتباين والتناقض فى أخلاقهم ومآربهم ، هم : بيوس الثانى ، وبول الثانى ، وسيكستوس الرابع ، وانوسنت الثامن !

وكانت البابوية ـ الى ذلك الحين ـ محتفظة ببعض ما كان لها من اجلال وتبجيل ، باعتبارها حارسة الدين وحامية المؤمنين. . الا انأولئك البابوات بتصرفاتهم الشائنة، أضاعوا ما كان لهم من حق موروث فى أن يقوموا بدور الحاكمين المتحكمين فى العالم الغربى .. **وفى غمار الروح الجديدة ، روح الحماس للوطن ، التى ولدت عبر جبال الألب، فقدت البابوية تلكالبقية الباقيةمنالتبجيل والاحترام،** ولم يعد لصوتها المدوى تلك القوة أو السطوة فى ان يهز قوائم عرش من العروش .. وانهارت الاسس الأخلاقية التى قامت عليها ، فانحطت الى درك سحيق من الانحلال والاضمحلال ، الى درجة أن جاء اليوم المشئوم الذى **أصبح فيه الأولاد غير الشرعيين للكرادلة يطمحون بأبصارهم نحو ارفع مناصب الكنيسة !**.. ولم يعد من المستغرب ان يأتى « رودريجو بورجيا » بعشيقته ، وبأبنائه منها ، ليقيموا معه فى ذات قصره بالفاتيكان !

***

وعلى الرغم من ان « رودريجو » عاش زمنا طويلا جدا فى ايطاليا ، الا أنه ظل مع ذلك اسبانيا متعصبا ، وقد أحاط نفسه على الدوام بالموظفين والخدم الاسبانيين، وكان أكثرهم من مسقط رأسه (جاتيفا) .. وكان يملى كل رسائله ومكاتباته باللهجة الفالنسية ، ويتعمد أن يربى أولاده ـ غير الشرعيين ـ بأسلوب يعدهم لأن يكونوا أقرب الى الاسبانيين منهم الى الايطاليين .

وفى يوم وفاة البابا « كاليكستوس » الثالث ، انطلق هتاف الجماهير فى ميدان « سان بيتر » صائحين : «ليسقط الأسبانى اللعين » .. **ومع ذلك فقد كان لابد من ان ينقضى نصف قرن ، قبل أن ترى ايطاليا نهاية ((بورجيا))** .. فما انتهت قائمتهم بوفاة هذا البابا ، ولا بانتهاء « رودريجو » ..

وحتى حينما سيق ابن «رودريجو » طريدا من ايطاليا ، كى يسجن فى قلعة (ميدينا) ، ويفيق بين جدرانها الرهيبة من حلمه الجميل ، ظل النفوذ الاسبانى فى (فيرارا) ، **حيث بقيت ابنة ((رودريجو)) ، محوطة بحاشيتها الاسبانية** ، تتغنى باغنيات (فالنسيا) .. الاغنيات التى ما زالت غادات (جاتيفا) يرددن بعضها الى اليوم ، وهن يجلبن الماء من الينابيع . واصولها مدرجة فى ملفات دار الحفظ فى (مودينا)، ومدبجة بتلك الحروف الدقيقة الرشيقة ، التى عرفت عن .. **((لوكريشيا بورجيا)) ، دوقة فيرارا** .

الفصل الاول

• في قلب جبال (سابين) ، وعلى مسيرة نحو ستين ميلا تجاه الشرق من (روما) ، تقع (سوبياكو) ، يشرف عليها القصر والدير ، اللذان شيدهما القديس «بنديكت» ..

واليوم تحوم فى سماء (سوبياكو) هالة من القدسية والرهبة ، وتكد جموع الزائرين فى السير — عبر الطريق الصخرى — متسابقين الى المغارة المقدسة . الا أن قليلين منهم ينثنون متسلقين المرتفع المؤدى الى القصر العتيق ، حيث يرون الأطلال الدارسة لذلك المعقل السامق .. فلا تقع منهم العين على أثر من مجده السابق ، سوى صورة ثور من ثيران (اسبانيا) ، يذكرهم باليوم الذى كانت فيه (سوبياكو) هى المسكن الحبيب الى **« رودريجو بورجيا » : كردينال فالنسيا ، وأسقف أوبورتو ، ومطران سوبياكو ، ومستشار الفاتيكان ..**

وقد كان « رودريجو » — أثناء حياته — شديد الولع بسكنى ذلك القصر القائم فوق الجبل ، حتى لقد أجبر عشيقته يوما — وهى حبلى ، والجنين يختلج فى أحشائها — على أن تصحبه الى هناك ، فى حين كانت الثلوج ما زالت تكسو ذرى المرتفعات ، والرياح القادمة من جبال (الابينايين) فى ذيول الشتاء ، تصفر بصوتها العنيف حول جدران القصر المنيف .. **وهنالك ، فى ذلك القصر ، وفى شهر أبريل سنة ١٤٨٠ ، ولدت الطفلة الصغيرة ، التى عرفها التاريخ بعد ذلك ، باسم « لوكريشيا بورجيا »** .

وليس من صور أو رسوم لدينا تخلد ذكرى تلك الغادة ،

التى لا نعرف عنها الا أنها أنجبت « لوكريشيا » ، وأن اسمها كان « فانوتزا دى كاتانى » ..

فمن تكون ياترى تلك الحبيبة الغالية ..؟!

لسنا نعلم عنها الا أن اسرتها قد جاءت من شمال ايطاليا، حيث لقب « كاتينيو » ، أو « كاتانى » ، ما زال شائعا فى (مانتيا) ، و (فينيسيا) .. وانها لم تكن ـ يوم عرفها رودريجو ـ مخلوقة ساقطة ، اذ أن المؤرخين اجمعوا ـ حتى أكثرهم ميلا الى الهجو ـ على وصفها بأنها كانت امرأة شريفة .

***

وعند ميلاد « اوكريشيا » ، كانت « فانوتزا » قد ناهزت الثامنة والثلاثين من عمرها .. كانت ـ وهى ترتحل عبر جبال (شمبانى) ، منهوكة القوى مثقلة بجنين فى أحشائها ـ تواجه مستقبلا غامضا .. **فقد أصبح الحبيب الذى استغرق كل حياتها وأفكارها ، سيدا عظيم الشأن ، رفيع المنصب ، بينما كان جمالها الباهر المتألق ، يشحب ويذوى، كالقمر وقت محاقه** .. ولم تعد بعد تأمل فى أن تثير مكامن الهوى والصبابة فى قلب رجل كانت شهيته التى لا ترتوى ولا تشبع ، وشهوته التى لاتنتهى ولاتقنع من ملذات الحياة ، ما زالت فى قوة اشتهاء صبى فى الثامنة عشرة من عمره !

هكذا وصفه كل من عرفه من معاصريه ، وقد أجمعوا على انه كان رجلا من ذلك الطراز النادر المثال ، الساحر الجمال ، الصاعق الفتنة .. ولقد كان ذلك الأسبانى الناعم الصوت ، الذى يسرى فى عروقه الدم الجبلى القوى ـ ممتزجا بليونة الفتى الفالنسى ـ أبرع فتيان أسبانيا شهوة وعشقا .. فقد اجتمعت فيه الخلاصتان المتناقضتان

للاسبان والعرب.. وربما خالطتهما خلاصة اليهود كذلك !.. ومن هذا المزيج المتنافر ، انبثق ذلك الدم الفائر .. بحيوية لا تهمد ولا تهدأ ! !

ولكى تفلح « فانوتزا » فى ان تظل حافظة لنفسها قلب ذلك العاشق – أكثر من خمسة عشر عاما – **لابد أنها تجشمت عناء ، واصطنعت ذكاء ودهاء ، وأفاضت عاطفة وحنانا .. لا ينضب لها معين !..** وانها لتبدو – على ضوء هذه الظروف – ذات ميزات فذة ، نادرة !

وحين سافر « بيدرو » – أكبر أبنائها منه – كى يتلقى علومه فى بلاط الملكة ايزابيللا ، سنة ١٤٨٠ – وهى ذات السنة التى ولدت فيها « لوكريشيا » – كان أخواه الآخران مقيمين مع امهما « فانوتزا » ..وهذان الاخوان هما «سيزار» – وكان فى الخامسة – و « جان » ، وكان فى الرابعة . وكانا جميلين ، مدللين ، متكبرين ، يصران على اعتبار نفسيهما – فى ظل مجد ابيهما – من طبقة الامراء !.. وكان الكردينال يضع لبناء مستقبلهما الخطط التى لم تكن « فانوتزا » لتعلم بها ، أو تؤخذ فى شأنها مجرد مشورتها .. اذ كان يتجاهلها فى ذلك كل التجاهل . ولما كانت امراة رقيقة الشعور ، دقيقة الاحساس ، فقد سعت الى وضع حد لما تعانى – بسبب ذلك – من احراج وايلام .. ولم يكن من حل لهذا الحال الا ان تقنع والد بنيها **بأن يسمح لها بأن تختار لها زوجا شرعيا يكفيها مؤونة هذا الاذلال ، ويكفل لها – فى ظلال العلاقة الشرعية – حياة الكرامة والاحترام !**

ولا بد أن حجتها – وهى تعرض ذلك على عشيقها – كانت من القوة والاقناع ، بحيث وفقت فى الحصول على موافقة رجل فى مثل طباع « رودريجو » .. وقبل ان تبلغ

لوكريشيا ستة أشهر من عمرها ، كان أولاد بورجيا ، قد أوتوا .. زوج أم !

ذلك أن منزلا جميلا ، وكرمة أعناب فيحاء فى (سبينوزا)، وبائنة ضخمة ، كانت كفيلة بالحصول لفانوتزا على يد **الشاب الفينيسى ((جورجيو دى كروشى)) ، المندوب الرسولى للبابا سيكستوس الرابع** .. ومع أن هذا الزواج كان مجرد حيلة قانونية لتصحيح مركز « فانوتزا » ، الا أنه بدا مع ذلك زواجا سعيدا جدا !.. ففى خلال عامين من وقوعه ، **بدأت ((فانوتزا)) تهدى كلا من زوجها وعشيقها اطفالا!** .. ولعله كان من دواعى البهجة والفخار للزوج المبجل ، أن صاحب المقام السامى ـ شريكه فى زوجته ـ قد بدأ يراوده الشك فى أبوته لآخر أبنائها ، مما أدى الى انتهاء العلاقة الغرامية بين «رودريجو» و «فانوتزا» .. وان كان قد لبث ـ مع ذلك ـ صديقا ، وأعظم سيد لها .. وظلت ـ حتى بعد وفاة زوجها فى سنة ١٤٨٦ ـ تقيم مع أبنائها فى منزل مجاور لقصر بورجيا فى روما .. ذلك القصر الذى ما زال ـ بعد اصلاحه وتجديده ـ قائما على مرمى الحجر من جسر « سان أنجيلو » ..

أما منزل « فانوتزا » فلم يعد له من أثر ، وقد عفت عليه يد الزمان مع ردهته الفارهة الفسيحة ، التى كان أبناؤها يطلون منها على الرائحين والغادين عبر الطريق : من كردينالات يغدون على متن خيولهم البيضاء المطهمة بالسروج الفضية ، وغادات محجبات يتخطرن اذ يبرحن محفاتهن ذات الستائر المخملية ..

****

وكانت « لوكريشيا » لم تتجاوز الرابعة من عمرها ، حينما اندلعت ـ على أثر وفاة البابا سيكستوس الرابع ـ

نار ثورة عظيمة عمت كل أنحاء روما ، وعملت على التنكيل بها ، وتخريبها .. اذ قامت « كاترينا سفورزا ريارو » ــ زوجة ابن أخ البابا ــ تقود حملتها الشهيرة ، من ابراج (سان أنجيلو) ، ضد الكرادلة .. الى أن قضى انتخاب البابا الجديد على أطماع الطامعين ، فهدأت ثائرة الشعب ، وخامره الأمل الباسم فى عهد أمن وسلام .

الا أن هذا البابا الجديد ــ « أنوسنت الثامن » ــ مالبث ان خيب ذلك الأمل ، بتأثير الكردينال « ديللا روفيرى » .. ابن أخ سلفه ، وزوج « كاترينا » . فأثار حربا أخرى ــ لاطائل منها ــ مع (نابولى) . وعادت روما لتجد نفسها من جديد نهبا للاضطراب والخراب . **وراح أولاد « بورجيا » ــ وهم محصنون وراء جدران منزلهم ــ يشاهدون مرة أخرى أهوال القتال المتبادل ..** فمن هنالك راوا ألسنة النيران تشتعل فى (مونتى جيوردانو) ، فتضىء رقعة السماء كلها اثناء الليل ، وسمعوا أصوات كتل البناء الضخمة ، وهى تهوى وتدوى عند سفح الجبل .. وشموا الرائحة العطرة الأخاذة لأحراش الغابة وهى تحترق ، والرائحة النتنة النفاذة للحم البشرى ، والنار تشويه فلا تتركه الا ركاما من الشمع الذاب ، واكواما من الفحم والتراب .. **حتى لقد اعتاد اولئك الصغار ــ وهم بعد فى براءة الطفولة ــ رؤية أعمال العنف والعسف ،** ومناظر القتال والاغتيال ، والمنازل المحطمة ، والجثث المهشمة ــ تتعفن فى مسارب القنوات ومسارى الانهار ــ والنساء يتعرضن للاغتصاب على قارعة الطريق فى وضح النهار !

ولكنهم ــ طوال زمن اقامتهم مع أمهم ــ كانوا يستشعرون فى حضنها الأمان والحنان والحماية والحب . اذ جعلت كل همها ــ مع زوجها اللطيف العطوف ــ ان تضفى جوا باسما

بهيجا من السعادة والسلام ، على حياة أولئك الاسبان الغريبى الموطن ، المتقلبى الطباع ، الذين قدر لهم ان يكونوا ابناءها ..
وكان « سيزار » احب أبنائها اليها .. فى حين أن « جان » هو الذى أفلح ـ منذ البداءة ـ فى أن يستأثر بعطف أبيه الكردينال ومحبته .. فكان هذا الايثار الواضح الذى أبداه « رودريجو بورجيا » نحو هذا الابن الجميل المدلل ـ اذ كان يذكره بأخيه الذى مات بمنفاه ـ هو العامل الذى بذر اول بذور الشقاق بين « سيزار » واخيه « جان » .
وكان ثمة عامل آخر للنزاع الذى نشب على مر الايام بينهما : **ذلك هو علاقتهما الشاذة بأختهما « اوكريشيا » ، التى حاول كل منهما أن يستأثر بها لتكون له وحده .**
ولما كانت « اوكريشيا » أصغر من « جان » بأربع سنوات ، وكانت ذات طبيعة مرحة تفيض بالسعادة والسماحة والبهجة ، فقد أبدت لهذا الشقيق خضوعها وطاعتها . حتى اذا تنبهت فيها ـ مع الايام ـ غريزة الانثى ، ادركت مقدار قوتها وقدرتها على أن تضرم نار التنافس بين الشقيقين . وكان ذلك الادراك ـ بالنسبة لفتاة صغيرة مثلها ـ أمرا خطيرا ، استطاعت بفطرتها ان تستغله ، وأن تستعمله كسلاح تدافع به عن نفسها ضدهما ، وتدفع به انانية كل منهما ..
كان محياها صبوحا ، يميل الى ان يكون ظريفا اكثر مما هو جميل .. وكانت أكثر ملامحها تميزا ووضوحا هما عيناها . فقد كانتا واسعتين ، ساهمتين ، حالمتين ، فى ظل أهداب طويلة سوداء . ومهما يقال فى الانف انه كان مرتفعا ، أو فى الفم انه كان متسعا ، أو فى الشفتين انهما كانتا ممتلئتين مكتنزتين ، الا ان الروح الذى كان شائعا فى وجهها كله كان بديعا رائعا ..
كان كل ما فيها ناعسا ، ناعما . وكان طبعها ذاته لينا

طيعا .. تجرى مع كل تيار ، وتميل مع كل ريح ، وتقبل بابتسامة راضية كل ما تعطيه الحياة مهما يكن ، وتتقبل غيرة أخويها كضريبة لابد منها لما أوتيت من سحرها الفتان !

وكان « جان » ـ من بين اخويها ـ هو الذى يمكنها ان تفهمه أكثر من أخيه . فقد كان ثرثارا ، مزهوا بنفسه ، كثير التشدق بمواهبه ومزاياه . الا أنه كان ـ مع ذلك ـ لطيفا ، ظريفا ، طيب القلب ، سريع الصفح والنسيان . **وكان على الدوام غارقا فى نفسه ، ومغرقا فى الاعجاب والزهو بفتنته وجمال محياه !**

وكانت « لوكريشيا » تشترك مع « جان » فى طبيعته تلك : طبيعة الاعجاب بنفسها ، والتغزل بحسنها ، والولع بالتجمل والزينة ، والتحلى باليواقيت والمجوهرات .

الا أن « سيزار » ـ وليس « جان » ـ هو الذى كان يغرق فى ارضائها ، ويغدق عليها الحلى الثمينة ، التى كانت شديدة الهيام بلألائها .. فكان « سيزار » ـ بكرمه وسخائه البالغين السابغين ـ هو الذى يضع بين يديها كل ما ترغبه أو تطلبه وتشتهيه .. ومن ثم فانه كان يستهويها ويسيطر عليها ..

ولابد أن « سيزار » كان فى طفولته أكثر فتنة منه وهو فى رجولته . فلم تكن مرارة الفشل فى بلوغ مآربه فى الحياة قد أفسدت بعد من طبعه وطبيعته . وقد وصفه المؤرخون بأنه « كان لطيف الطلعة ، خفيف الروح ، ظريف الطبع ، له مظهر الامراء ورهبتهم » .. وقد اجتمع كل ذلك فيه الى عود أهيف ، وشعر أصفر يحكى فى توهج لونه لهيب النار ، وهو يتوج بهالته النورانية جبينه الوضاء ..

كان « جان » يحكى ـ فى رقته وفتنته ـ زهرة النرجس

الفضة فى كمال رونقها وروائها .. الا أنه لم يؤت قوة ((سيزار)) ورجولته .. لم يكن له شىء من تلك الصفات التى تصلح لقائد جنود .. وانه ليبدو غريبا ان رجلا حاذقا أريبا ــ مثل « رودريجو » ــ وقع فيما وقع فيه من الخطأ ، اذ جعل من « سيزار » كاهنا ، ومن « جان » جنديا !

***

وكان «جان» بالكاد قد بلغ العاشرة من عمره ، حين بعث به «رودريجو» ــ فى ربيع سنة ١٤٨٦ ــ ليلحق بأخيه الأكبر فى البلاط الاسبانى .. فى حين بقى « سيزار » فى ايطاليا ليدرس القانون الكنسى ــ فى جامعتى (بيريجيا) و (بيزان) ــ ليكون جديرا بعد ذلك ، بأن يرشح لاحدى الأبروشيات الاسبانية ..

وقد اتفق عام رحيل جان ، مع الوقت الذى مات فيه زوج أمه ((جورجيو دى كروشى)) .. ومن ثم راح الكردينال

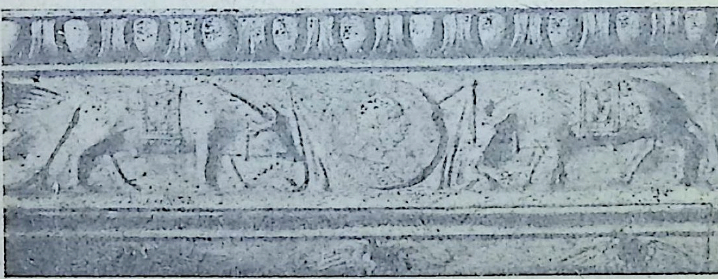

شعار آل بورجيا .. الثوران وبينهما صورة البابا . نقلا عن نقوش فى قصر بورجيا بالفاتيكان .

« **الكريم** » يرسم الخطة من جديد ، ليجد زوجا آخر لعشيقته السابقة ، منتهزا هذه الفرصة لنقل أولاده الى حياة أخرى ..

ويبدو أن « فانوتزا » قبلت مشيئته هذه بروحها اللطيفة المألوفة .. فلم تتكلم أو تتألم . وليس من برهان على ما كانت تنعم به من سعادة واستسلام ، أعظم من أنها ــ وكانت قد بلغت فى ذلك الحين سن الرابعة والاربعين ــ ظلت محتفظة بجمالها الفتان ، **الى درجة أنها استطاعت أن تثير مشاعر الهوى والغرام فى قلب « كارلو كانال »** .. مواطن (مانتوا) ، وصديق آل « بوليزيانو » !

أما « سيزار » و « لوكريشيا » ، فان زواج أمهما مرة أخرى ، كان من شأنه أن ينهى فترة طفولتهما .. فانتقلا فجأة الى جو من الوحشة والاحساس بالغربة فى كنف امرأة أخرى غيرها .. اذ أن الكردينال «بورجيا» وجد من المناسب ــ بعد أن وفق فى تزويج عشيقته ــ أن يعهد بابنيه اللذين كانا فى رعايتها ، الى قريبته الاسبانية **« أدريانا ميلا »** ، باعتبارها ابنة واحد من أولاد عمه الكثيرين الذين هاجروا الى ايطاليا فى عهد « كاليكستوس » الثالث ..

وكانت أدريانا قد وفقت ــ بفضل جمالها ومواهبها ــ الى زوج من أحد البيوتات الاقطاعية العظيمة ، وهو بيت « أورسيني » . ولما كانت قد ترملت فى سن مبكرة ، فقد عاشت مع ولدها فى قصر العائلة ، فى (مونت جيوردانو) .. وقد ضربت للعالم مثلا رائعا فى ترمل المرأة الاسبانية ، حيث أخفت جمالها تحت نقاب كثيف من الحزن والشجن ، وراحت تتناول طعامها فى أوان خزفية ، كما كانت تملى عليها عادات بلادها .. **وكان ذلك الوفاء لاسبانيتها هو الذى اعتبره قريبها الكردينال فضيلتها العظمى** : اذ كانت تفخر بأصلها

الفالنسى ، أكثر من انتسابها الى آل « أورسينى » . وهكذا جردت نفسها من كل حب أو اخلاص لبلاد زوجها ، فعاشت غريبة فى قلب روما . ومن ثم فقد كان مما لابد منه أن ينشأ طفلا بورجيا تحت رعايتها ، وأن ينموا مشبعين بالاخلاق الاسبانية ، ومعدين على الدوام لأن يعودا ليأخذا مكانيهما فى اسبانيا .

ولا بد انهما ـ وقد تعودا ما كان يسود بيت أمهما من حرية وحنان وبهجة ـ قدبدت لهما الحياة فى قصر «أورسينى» باردة مكبوتة مقبضة .. وكأنما القصر كان سجنا ، بجدرانه الخشنة ، وبروجه المرتفعة ، التى لم تكن لتتفق مع الروح البسيطة البهيجة التى كانت يومذاك تسود العصر الجديد : عصر النهضة ..

كان ذلك القصر محتفظا بطابع قلاع القرون الوسطى ، منتصبا كحصن دفاع على شاطىء التيبر . ومع ان الهدنة مع (نابولى) ، والتحالف بين البابا و (فلورنسا) ، كانا يلقيان ظلا خفيفا من السلام على (مونتى جياردانو) ، الا أن أثرهما كان ضئيلا فى تلطيف ذلك الجو المقبض ، الذى كان يحوم حول جدران القصر الكالحة .. **والواقع أنه كان معقلا حربيا أكثر مما كان قصرا ، تجرى الحياة فيه تحت القيادة العليا لرأس العائلة : ((فرجينيو أورسينى))** ، الذى كان يخضع له كل رجل وكل امرأة من أهل البيت ، يجرون فى ذلك على نظام عسكرى صارم .

***

على انه لم يكد ينقضى غير عام واحد على اقامة الطفلين فى (مونتى جياردانو) ، حتى قضت مشيئة الكردينال أن يبعث

« بسيزار » ـ وكان قد بلغ الثامنة عشرة ـ كى يدرس اللاهوت فى جامعة (بيريشيا) .

وفى خلال ذلك العام الواحد ، كانت قد توثقت العلاقة بين « سيزار » واخته « لوكريشيا » أكثر من أى وقت مضى .

واذ لم يعد أمام « لوكريشيا » ـ بعد رحيل شقيقها الحبيب ـ الا أن تعانى الوحدة القاسية ، فانها لم تجد بدا من أن تعود نفسها بالتدريج على الحياة فى قصر «أورسينى» ، وأن تنظر الى « أدريانا » نظرتها الى الأم .. الى حد ما !

وعلى الرغم من أنها كانت ـ على الدوام ـ ترتدى ملابسها على الطريقة الاسبانية ، وكان يقوم على خدمتها خدم من الاسبان ، الا ان ثقافتها كانت ثقافة فتاة من عصر النهضة : تلم ببعض الأغريقية ، وبعض اللاتينية ، وتتذوق الشعر ، وتعشق فن التطريز ، وتضرب على العود . وقد عهد بثقافتها الدينية الى راهبات «سان سيكستوس» ، المشهورات بالتقوى وبالعلم .. ومع ان الراهبات الطيبات استطعن ان يلتنها عقيدة الكنيسة المسيحية ، وان يغرسن فيها روح المحبة والاخلاص ، **الا انه كان من الصعب عليهن ان يضعن الأسس الاخلاقية لطفلة كان كيانها كله يتنافر مع تعاليمهن !**

لم يكن لهن أن يستقصين ظروف ميلادها ، ولا معالم العالم الذى كانت تعيش فيه أبان طفولتها ، ولا أن يتساءلن عن أوجه الاهتمام التى كان صاحب السلطة العظمى مستشار الفاتيكان يبديها نحوها .. كل ما كان فى وسعهن أن يفعلنه هو أن يعلمنها عقيدة مناقضة لكل شىء كانت تراه فى قصر « أورسينى » .

ومهما كانت الفوائد المادية التى عادت على « ادريانا » ـ نظير رعايتها للوكريشيا ـ **فقد كان من العسير عليها أن تكون مربية لفتاة مثلها نضجت قبل أوانها !..** فعلى الرغم

من أن « أدريانا » عاشت محوطة برجال الدين ، وكان وجهها يطفح بالصرامة وعلامات الوقار والجد ، وكانت تذهب فى التدين الى درجة التعصب ، **الا أن ذلك النقاب الكثيف ـ الذى كانت تضفيه على حقيقة طبيعتها ـ كان يخفى تحته نفسا فاسدة بعيدة كل البعد عن الاخلاق الفاضلة ! ..** كان فيه الرياء والنفاق مغلفين باللباقة والفن الجميل فى السلوك الاجتماعى .. وكان فيه الهجاء والاستهزاء بالناس يسود كل تصرف . وتحت تأثير تعليمها ، اكتسبت لوكريشيا صفات خفية تحمل فى أغوارها طبيعة النفاق .. وتغلغلت فى أعماقها عادة اخضاع مشاعرها لمقتضيات الساعة ، **والادراك الغريزى لقيمة الابتسام فى علاقتها مع الرجال ، وخاصة مع « عمها » الكردينال ـ كما عودوها أن تلقب أباها الحقيقى ـ وان ما تكسبه بالابتسام أعظم بكثير مما تكسبه بالخصام ، وبالدموع !**

وما أن بلغت « لوكريشيا » العاشرة من عمرها ، حتى كانت قد برعت تماما فى أن تدرك كيف تتصرف حيال الموقف الذى استجد فى محيطها اذ ذاك : اذ ظهرت فى ذلك المحيط غادة جديدة ، هى « جوليا فارنيزى » ـ العروس ذات الخمسة عشر ربيعا ، لابن « أدريانا » ذى العين الواحدة ـ التى جاءت لتعيش فى قصر « أورسينى » .

الفصل الثانى

• **وكانت** « جوليا » ـ الصبية ذات الجمال الأسطورى ـ هى التى بجمالها قررت مصير اهلها..وهم آل «فارنيزى» . **اذ ان الطموح أغرى أخاها بان يلفت اليها أنظار الكهل ذى السبعة وخمسين عاما من عمره : كردينال « بورجيا » ..**

وقد صبتها المقادير فى قالب الهة من ربات الأساطير ، وحبتها الطبيعة بأول أضواء الصبا المنبثق من الفجر الوضاء، فبدت كأنما هى ربة علوية نزلت من سماء وطنها (اتروريا) ، حيث نشأ آل « فارنيزى » ، فى الاراضى الواقعة حول بحيرة (بولزينا) .

وكان فى عينيها ذلك الاغراء الذى يدير عقول الرجال ، فلا يجدون مفرا من الاستجابة له ، والوقوع فى أسره .. فكم بالاحرى بالنسبة الى كهل تجاوز — من زمن بعيد — فترة الشباب ، واجتاز رحلة العمر الى مرحلة الشيخوخة ، مثل الكردينال ؟!

ولسنا نجد فى الاسفار المكتوبة عن آل « بورجيا » مايهدينا الى الوقت الذى بدأت فيه العلاقة بين « جوليا » و«رودريجو» ، أو ما يدلنا على أن زواجهابالفتى «أورسينى» فى ربيع سنة ١٤٩٠ ، كان هو الثمرة الاولى لتلك العلاقة . الا ان ما ثبت من أن الزفاف قد تمت مراسيمه فى قصر « بورجيا » ، وأن الكردينال كان هو الشاهد الاول من شهود القرآن ، يؤكد لنا أن **العلاقة كانت قد توثقت بينهما فعلا فى ذلك الحين ، وأن « أدريانا » — والدة عريس « جوليا » — كانت بغير شك على تمام العلم بحقيقة الصلة التى بينهما !**

أما الضحية الوحيدة فى تلك الرواية ، فكان ذلك العريس ذا السبعة عشر عاما . وقد كان ضعفه البدنى ، مضافا اليه ضياع احدى عينيه ، قد جعل منه مخلوقا لا يمكن أن يثير عواطف الحب فى قلب غادة كانت — فوق جمالها الباهر — من ذلك الطراز الذى تشرب منذ فجر الصبا الباكر بتعاليم الاباحية السافرة فى روما !

أما « رودريجو بورجيا » ، فانه — برغم بلوغه السابعة

والخمسين ـ كان بعد معدودا من أجمل رجال عصره : ففضلا عن مفاتنه الجسدية ، ظل محتفظا بروحه ذات السحر الذى لا يقاوم ، وصوته الناعم الموسيقى ، وتلك اللثغة الخفيفة التى تفشى سر أصله الاسبانى ، وتبث فى ألفاظه جاذبية تجعل من العسير على امرأة ان تقاومه .. ناهيك بفتاة صغيرة ، غرة ، لم تختبر بعد أساليب الرجال !

الا أن « جوليا فارنيزى » ـ فيما يبدو ـ لم تحاول قط أن تقاوم أو تعارض .. **لأنها ـ على الاقل كأخت مخلصة مطيعة ـ كانت على تمام الاستعداد لأن تساعد أخاها فى الوصول الى أغراضه !..** وفعلا، لم ينقض شهر واحد على زواجها ، حتى كان « الكسندر فارنيزى » ـ اخوها ـ قد رسم أسقفا .

****

وكانت الصداقة الوثيقة ـ التى قامت بين « ادريانا أورسينى » وعروس ابنها ـ لا تدع مجالا للشك فى أنها كانت مسئولة بعض المسئولية ، **سواء فى تدبير الزواج ، أو فى التستر على العلاقة الغرامية بين جوليا والكردينال !**

والواقع أن «أدريانا» ـ وان كانت قد نالت نصيبا من أفضال قريبها ـ الا أن الطمع والمكر سولا لها بعد ذلك ، أن تغير من دورها المؤقت فى حياة الكردينال ـ **باعتبارها خليلته ـ** الى الدور الاطول بقاء ودواما .. **دور السكرتيرة الخاصة بالشؤون النسوية لذلك العاشق المفتون !..** وفى هذه المرة كانت على أتم استعداد لأن تستقبل ـ فى بيتها ـ الغادة الصغيرة « جوليا فارنيزى » ، باعتبارها النجم الطالع ، الذى سيجلب الى فلكها كل أولئك الطامعين الطامحين فى أن ينالوا حظوة لدى السيد المستشار !

وهكذا رأت المرأة الاسبانية ـ الخبيرة بشؤون الدنيا ـ ان اللحظة قد جاءت لأن تطرح جانبا أثواب حدادها على الحبيب المزعوم ـ زوجها المرحوم ! ـ وأن تعود الى المجتمع الرومانى مرة أخرى ، باعتبارها حماة «جوليا» ، وراعية «لوكريشيا»!

الا أنه ما من أحد أكرم وفادة ((جوليا فارنيزى)) بمثل الحرارة التى استقبلتها بها ((لوكريشيا)) .. ولا عجب ، فان الحيوية الدافقة التى كانت تتصف بها « جوليـــا » ، ومرحها ، وخفة روحها ، أفلحت فى أن تحطم ذلك الحصار الذى كان مضروبا حول حياة «لوكريشيا»، فما لبثت زياراتها لقصر الكردينال ـ عمها ! ـ أن اتصلت مرة أخرى ، وتواترت كما كانت فى أيام طفولتها الباكرة . وكانت «جوليا» تصحبها دائما فى تلك الزيارات ، بوصفها الصديقة والرفيقــة التى تلازمها ، والتى لا تحجب ابدا بغيرها ، أو تتخذ خدنا سواها .

ولم يمض وقت طويل ، حتى اكتشفت لوكريشيا ذلك السر الذى لم تكن تدرى به، أو تدرك حقيقته فى طفولتها .. **وهو أن الكردينال الذى تدعوه عمها ، لم يكن ـ فى الحقيقة ـ سوى أبيها .. وأن أباها هذا ، هو عشيق جوليا !!**

الا أن اكتشافها هذا الامر لم يصدمها ، أو يلح لها شيئا غريبا . فانها أثناء زياراتها لقصر الفاتيكان ـ قبل ذلك ـ كانت قد رأت الجميلة « تيودورينا شيبو » ، التى كان الجميع يعرفون انها ابنة البابا «أنوسنت» !! .. كما أنها ـ فى صحبة « جوليا » و « أدريانا » ـ كانت قد شهدت حفل زواج « فرانشيسكيتو شيبو » ـ ابن البابا أنوسنت ، كذلك ـ بأبنه « لورنزو دى ميديتشى » .. حين كانت المشاعل تتوهج فوق التلال السبعة ، والنافورات تنفث نبيذا بدل الماء !

وبرغم العبوس والصرامة اللذين كانا يخيمان على قصر

« أورسينى » ، والحشمة الظاهرية ـ التى كانت تسود كل تصرفات « أدريانا » فى ادارتها لشؤون ذلك القصر ـ **فان لوكريشيا لم تملك الا أن تتأثر بالفساد الذى كان يحيط بها من كل جانب .**

كانت ـ فى الظاهر ـ لا تزال طفلة ، الا أن عينيها الناعستين الواسعتين حيرتا ألباب أساتذتها الذين كانوا يلقنونها اللغة الاغريقية واللاتينية ، وأصدقاء والدها الذين كانوا يزورون قصر أورسينى ، لا لسبب الا لينعموا برؤيتها تؤدى الرقصات الفالنسية التى تعلمتها من خادماتها الاسبانيات . وكانت « أدريانا » ـ بوصفها مربيتها وراعيتها ـ تشجعها على أن تستقبل أولئك الذين كانوا يعتبرون امراء الفاتيكان .. غير عابئة بأن كثيرين منهم كانوا شبانا مكتملين جمالا وظرفا ، وممتلئين حيوية ورجولة !

***

وكانت لوكريشيا فى سن العاشرة ، حين جاءت الانباء بوفاة أخيها « بيدرو لويس » .. مما دفع سيزار الى التعجيل بالعودة الى (روما) ، ممتلئا بالآمال العريضة فى ان يقبل أبوه ـ بعد وفاة ابنه الاكبر ـ أن يطلق سراحه من اسار الكهنوت ، كى يرث دوقية أخيه . الا أن « رودريجو بورجيا » كان قد وضع خطته فعلا بما لا يحقق هذه الآمال **.. اذ استدعى « سيزار » لكى يرسمه البابا « أنوسنت » أسقفا لأبروشية (بمبالونا) الاسبانية ، تاركا لاخيه الاصغر « جان » مخلفات « بيدرو »** : دوقية (جانديا) ، والعروس الملكية ، التى كان « بيدرو » قد خطبها قبل وفاته بقليل !

أما « لوكريشيا » ، فلم يمض عام واحد بعد ذلك ، حتى كانت قد **خطبت بدورها الى نبيل أسبانى، هو « دون سبروبينو**

دوشنتلى »، سيد وادى (اجورا) فى مقاطعة (فالنسيا) ..

ولسنا نعرف عن ذلك الحبيب الاول ، الا انه قد تلقى تعليمه مع « بيدرو لويس » فى البلاط الاسبانى ، وانه ـ فيما يبدو ـ لم تكن مصلحته فى هذا الزواج تعدل مصلحةالعروس التى كان كل مرامها ومرماها أن تفوز بشرف الانتساب الى اسرة ملكية .

وليس ادل على ذلك ، من انه لم تمض بضعة اشهر على هذه الخطبة ، حتى كانت قد انفصمت عراها .. **لا لسبب الا ان الكردينال « بورجيا » قد عثر على فرصة أثمن من هذه ، وأكثر طموحا لمستقبل ابنته « لوكريشيا » ! ..**

وكان « العريس » الثانى الذى اختاره لها ، سيدا اسبانيا كذلك ، هو **« الدون جاسبارو دى بروشيدا »** ، أمير مقاطعة (افيرسا) .. ولم يكن هذا العريس الجديد من العظماء البارزين فى اسبانيا فحسب ، وانما كان مرتبطا كذلك برابطة النسب مع فرع (نابولى) من اسرة (اراجون) المالكة .

الا ان مستقبل « لوكريشيا » لم يبد انه قد استتب نهائيا ، الا حينما اضطجع البابا انوسنت ـ فى نهاية يوليو سنة ١٤٩٢ ـ ضجعة الموت !.. فقبل أن يلفظ آخر أنفاسه، نشبت حول سريره أعنف معركة عرفها التاريخ ، للفوز بمنصب البابوية الرفيع !.. **اذ تزاحم الكرادلة الطامعون، الطامحون ، المتخاصمون ، فى غرفة المريض المدنف المشرف على نهايته ..** وراح « جيليانو ديللا روفيرى » ، و« رودريجو بورجيا » ، يتبادلان الاهانات والشتائم فى زحمة المأتم القائم !

ولما كان البابا الراحل قد ظل ـ طوال حياته ـ مفعما بالخوف من مطامع كرادلته وباروناته ، فقد كان شديد

الاعتماد على مشورة صديقه « لورنزو دى ميديتشى » .. وبفضل الجهود الصادقة لهذا المستشار ، تمتعت ايطاليا ـ فى السنوات الاربع السابقة على وفاة البابا ـ بعهد سعيد من الأمن والسلام . الا أن هذا الرجل الامين فى مشورته ، كان قد سبق البابا الى القبر ، ووقعت ايطاليا ـ من بعده ـ تحت رحمة الانتهازيين المتنافسين المتنابذين : « فيرانت دى اراجون » ـ ملك (نابولى) ـ و « لودوفيكو سفورزا » ، الوصى على عرش (ميلان) ..

***

وبين عوامل الفتن الداخلية والمؤامرات ـ التى كانت تتصادم حول فراش البابا ، وتسيطر على الفاتيكان ـ راحت الفتن السياسية بدورها تطل برأسها ، منتهزة هذه الفرصة كى تحقق أطماع السياسة وأربابها .. فما لبثت فرنسا أن أعلنت ـ فى هذا الظرف العصيب ـ حقها فى التدخل فى شؤون ايطاليا .. فى حين كانت أسبانيا ـ من جانبها ـ تسعى لأن تحتل سريعا مركزا رفيعا فى أوروبا .. **ومن ثم فقد أصبح أمرا لا مفر منه أن تتدخل العوامل السياسية فى انتخاب البابا ..**

ولما كان «رودريجو» ـ فضلا عن كونه مستشار الفاتيكان ـ معتبرا فوق ذلك كردينال (فالنسيا) ، فقد أصبح هو المرشح الوحيد الذى يمثل أسبانيا ويستند الى نفوذها . وبينما كانت المنازعات بين زملائه الكرادلة، شخصية محضة، كان هو وحده الذى استند الى نزعة سياسية كان لها الغلبة والتفوق فى ذلك الحين . أضف الى ذلك أنه وضع الهدايا والعطايا والمنح ـ التى تلقاها « رودريجو » من أربعة باباوات

متعاقبين ، خلال عشرات من السنين ـ تحت تصرف أنصاره في تلك المعركة الخطيرة الحاسمة . بل ان « ديللا روفيرى » نفسه ـ وهو منافسه العنيد الذى كان يبادله الحقد والكراهية ـ ظفر بنصيب من وعوده السخية ، لقاء انضمامه الى أنصاره .. **ولقد أثبت المؤرخون ان أحمالا من الذهب كانت تغادر قصر بورجيا تحت الحراسة المسلحة ـ في كل مساء من أمسيات المعركة ـ لتوزع على الانصار !**

وفى وقدة الحر اللافح ـ الذى يصب لهيبه على روما خلال شهر اغسطس ـ انعقد الاجتماع السرى للكرادلة فى قصر الفاتيكان . ورغم الحصار المضروب على هذا الاجتماع ، فقد نجحت الشائعات فى النفاذ خلال الابواب المغلقة ، وانسابت الهمسات المحمومة ـ فى طرقات روما ـ تتناقلها من فم الى فم ، والرسل السريون يهرولون جيئة وذهابا بين الفاتيكان وقصور البارونات الرومان .. ولقد كاد السفير الفرنسى أن يعلق بالفعل انتصاره حينما تبين من الفحص الاول ، **ان الكردينال « بورجيا » ـ مرشح الدوائر الاسبانية ـ قد نال أربعة أصوات فقط ، مقابل أحد عشر صوتا نالها « ديللا روفيرى » ..**

واذن ، فقد كان أعداء « رودريجو » أقوياء .. ولا عجب ، فما من رجل فاضل كان يسمح له ضميره أن ينتخب لكرسى البابوية رجلا كانت حياته الخاصة فضيحة وعارا فى جبين الكنيسة .. ولكن القدر تدخل فى آخر لحظة : فان الكردينال « أسكانيو سفورزا » ـ أحد المرشحين ـ رأى من النتائج الاولى أن أمله فى البابوية قد أفلت نهائيا ، فلم يجد بدا من ان يتعزى عنه بالوعد الذى سبق ان بذله « رودريجو » اليه،

بأن يعينه مستشار الفاتيكان ، اذا هو ناصره فى الوصول الى الكرسى . **فما حل ميعاد الفحص الثانى للأصوات ، حتى كان أنصار الحزب الميلانى قد منحوا تأييدهم بالاجماع لبورجيا .**

وفى ليلة ١٠ أغسطس ، شاعت أنباء انتخابه فى أنحاء المدينة .. وحينئذ ، ظهرت بوضوح الكفة الراجحة . فما هى الا اللحظات الاخيرة ، حتى كان المترددون من الناخبين قد أدركوا الى أين تتجه الريح ، فبادروا الى جمع شملهم ولم شعثهم ، وهرولوا الى تلك الكفة التى رجحت . وسارع الفاشلون من المرشحين الى انقاذ بعض منافعهم الباقية ، بالانحياز لصاحب الكفة . بل ان « جيليانو ديللا روفيرى » نفسه ، لم يسعه ـ فى الساعة الحادية عشرة من ذلك المساء ـ الا ان يتنازل نهائيا ، فى مقابل ترشيحه لمنصب سفير للبابا فى (افينيون) ، ممثلا لغريمه .. **وقد كان حتى تلك الساعة يهجو هذا الغريم ، ويدعوه «ذلك اليهودى الأسبانى اللعين » !!**

وفى الفجر الباكر ليوم ١١ أغسطس سنة ١٤٩٢ ، سمعت الجماهير ـ التى كانت ساهرة فى ميدان القديس بطرس ـ دقة المطرقة الفضية على النافذه ذات السياج ، وصوتا جهوريا يعلن على الدنيا ، ان « **رودريجو بورجيا** » ، كردينال فالنسيا ، وأسقف أوبورتو ، ومطران سوبياكو ، **قد انتخب بالاجماع ، ليجلس على كرسى البابوية ، وقد أصبح منذ اليوم يدعى « اليكسندر السادس » .**

وفى بهجة النصر والفخر ، تحرك موكب البابا الجديد ، متهاديا نحو الشرفة .. لكى يبارك رعاياه !!

الفصل الثالث

• **وحدد** يوم ٢٦ اغسطس سنة ١٤٩٢ ، لتتويج « رودريجو بورجيا » ، ورفعه الى عرش البابوية الرفيع..

ومهما يكن من كراهية الرومانيين لأن يكون « البابا » الجديد من اصل اسبانى ، وان يكون هو «رودريجو بورجيا» بالذات ، فان جموعهم توافدت من جميع ارجاء ايطاليا ، على ارجلهم ، وعلى ظهور الخيل ، وفى المركبات والمحفات .. فامتلأت بهم شوارع (روما) وطرقاتها ، **ولم يستطع سوى الامراء والعظماء والسفراء والاساقفة ان يجدوا اماكن للمبيت فى فنادق العاصمة المزدحمة ، او فى قصور باروناتها من الاقطاعيين..** فعمد الكثيرون الى ضرب خيام فوق التلال المطلة على المدينة ، او فى الغابات التى كانت تستلقى حولها !

وتحت سماء الصيف ، ظلت المدينة ساهرة ، تموج بالصخب والمرح .. حتى اذا انتشرت خيوط الفجر الذهبية على هامات التلال ، وصدحت الطيور فى الغابات مؤذنة بالصباح ، هب القوم يستقبلون يوم عيد.. وطلعت الشمس - فى ميدان (سان مارك) - على **تمثال هائل ، يتدفق النبيذ من قرونه الذهبية ، ويمثل شعار ((بورجيا)) .. اغنى واسخى واجمل كردينال فى تاريخ روما ، وعلى عرش البابوية !**

وما رأى الناس ابهج منظرا ، ولا اروع ابهة ، ولا اعظم جلالا من ((رودريجو)) ، حين انطلق من ميدان (سان بيتر) الى نور الشمس الساطعة ، فى منتصف النهار ، ليعتلى أعظم عروش الارض مهابة وقدسية !

وفى غمرة الاحتفال الصاخب ، ساد السلام (روما) ، فنسيت ما كان يسودها بالأمس من اضطرابات ، وانقشعت

غيوم التآمر والمغامرات .. واذا آل كولونى وآل اورسينى يسيرون جنبا الى جنب ، مرددين هتافا واحدا ، وقد نسوا حزازاتهم .. واذا سفراء ميلان ونابولى يتبادلون المجاملات فى مودة الأحباب والاحلاف .. وخلف ركاب البابا ، كان ثمة سبعمائة كاهن وكردينال ، يتقدمهم « اسكانيو سفورزا » و « جيليانو ديللا روفيرى » .. ثم اقبل الحرس البابوى ؛ يختال فى زيه الفاخر الانيق .. يعقبه اثنا عشر وصيفا فى أثواب من الفضة ، يقودون أثنى عشر جوادا أبيض ذات أعنة من الذهب ، ويتبعهم خمسة فرسان يخفرون كتيبة من الأسرى .. ثم جاء بعدهم رتل من الرهبان .. وهكذا تقاطر سيل الجموع ، متزاحمين متلاحمين ، حتى لقد **استغرق سير الموكب ساعتين كاملتين كى ينتقل من ميدان (سان بيتر) الى كنيسة « سان جون » .**

وفوق جسر (سان انجيلو) ، كان ثمة رتل من الغلمان يحملون أكاليل الزهور ، ويرتلون قائلين : « بالأمس رفعت روما قيصرا الى المجد .. واليوم ترفع اليكسندر .. ولكن ذاك كان بشرا ، اما هذا فرب » ! !

***

وفى شرفة قصر الفاتيكان ، وبالقرب من ميدان (سان بيتر) ، كان ثمة فتاة صغيرة ، فى محياها من الشبه بالبابا الجديد ما استلفت انظار كل العابرين : ذات الفم الممتلىء الشهى ، والأنف المنحنى الشهوانى ، والعينين الواسعتين الضاحكتين ، يتلألأ فيهما ينبوع زاخر من المرح والفتنة .. **تلك كانت «لوكريشيا» .. وما كان أحد فى روما كلها ليجهل أنها ابنة باباهم الجديد !**

وعلى الـرغم من أنها كانت ـ فى ذلك الحين ـ مخطوبة فعـلا ، الا ان ميـلان ونابولى ، ظلتا تتنافسـان على حظوة الفوز بهـا لواحـد من آل سـفورزا ، أو واحـد من اسرة اراجون .

الا أن لوكريشيا ـ وهى بعيدة الذهن عن تلك المنافسات الدائرة حولها ، والتدابير المتعلقة بمستقبلها ـ راحت ترقب، مسلوبة اللب خافقة القلب ، زينات الأحتفـال بنصر ابيها ، وقـد اسـتسلمت لذلك الأحسـاس اللذيذ الذى يدغدغ مشاعرها ، وذلك الجو الجديد الذى بدأ يحيط بهـا : **ذلك الخضوع والتذلل الذى بدأت تلمسه فى سـلوك « أدريانا » نحوها** .. وذلك الاحترام المشوب بالخشوع والأجلال الذى راحت راهبات « سان سـيكستوس » الطيبات يبدينه فى توجيه الخطاب اليها ، وقد بكين من الفرح حين جلس ابوها على عرش البابوية ، وراحت كل أجراس روما تدق لتحيته، والجماهير تركع أمامه .

واستقبلت « لوكريشيا » كل هذا بابتسامتها المتلألئة ، وبنظرتهـا المرحة الصريحـة الصافية . وما كانت تدرى ـ وهى بعد فى هذه السن الصغيرة ـ أنه قـد قدر لها ـ منذ ذلك اليوم ـ ان تكون هدفا لألف عين ترمقها ، منددة بأصل ميلادها ، **باعتبارها الأبنة غير الشرعية للكردينال «رودريجو بورجيـا »** .. بل أن موجـة التعريض بهـا بدأت فى ذات الاسبوع الأول من جلوس أبيها ، اذ كتب سفير (فيرارا) الى الدوق « اركول ديستـه» ، يقول له : « ان قداسته قد وعد بأن يقوم بكثير من الأصلاحات ، وأن يطرد رجـال الحاشية الفاسدين الفاسقين ، والموظفين المرتشين ، وفوق كل شيء .. أن يبعد أبناءه عن روما » !

((جايا)) .. احدى الربات اللائى رسمهن ((جيوفانى بيلليني)) فى لوحة ((مأدبة الآلهة)) .. ويقال انه اتخذ ((لوكريشيا بورجيا)) نموذجا لرسم هذه الربة

وبالفعل ما لبث البابا الجديد أن أبدى ـ فى ذلك الوقت بالذات ، وهو يستهل عهد سلطانه ـ ما يثبت أنه كان جادا فى تنفيذ ماقطع على نفسه من عهود . فعندما وصل الى روما ابنه سيزار ـ اسقف (بمبالونا) الشاب ـ كى يهنىء والده بارتقائه عرش البابوية ، لم يرفض البابا تحديد ميعاد مقابلة خاصة له فحسب ، وأنما وجه اليه أنذارا قال فيه : ((**أننا هنا لمجد الرب ، وليس فقط لمجد عائلتنا .. وأن غايتنا أن نحصل على خلاص النفوس ، وليس فقط ، لنحقق مطامعنا الخاصة**)) !

ومع ذلك ، فلم تنقض أسابيع قليلة بعد عودة ((سيزار)) الى (سيزا) ليكمل دراساته اللاهوتية ، حتى صدر أمر أبيه ((البابا)) بتعيينه أسقفا لفالنسيا ، ومنحه دخلا سنويا قدره ستة عشر الف دوقية .. **لا لينفقه ((لمجد الرب)) ، وأنما ((لمجد العائلة))** !

واذ حرم اليكسندر السادس من صحبة أبنائه ـ نظرا لأن «سيزار» كان فى (بيزا)، و «جان» فى اسبانيا، «وجوفريه» فى مدرسته ـ فان البابا أغدق عاطفة أبوته كلها على فتاته الصغيرة «لوكريشيا» .. التى كانت ـ برغم حداثة سنها ـ قد غدت فى ذلك الحين غادة ملؤها الجاذبية والذكاء والحذق فى أدراك رغباته والاستجابة لكل طلباته ونزواته ..

وكانت «جوليا» ـ على الدوام ـ فى صحبة «لوكريشيا »، وقد غدت أعز الصديقات لها ، واقربهن الى قلبها . وبرغم **أنه كان فى أحشائها ـ فى ذلك الحين ـ جنين من عشيقها البابا ، وكان حملها ظاهرا ، فانها استمرت تظهر مع «لوكريشيا» فى كل مناسبة عامة** .. وكان السفراء والكرادلة

يتســابقون فى أطرائها والتملق اليها ، واســترعاء اهتمامها ونيل عطفها ورعايتها !

***

وكانت الفضيحة الأولى للحكم الجـديد ، حين اسـتأجر البابا من صديقه القديم ، كردينال زينو ، قصر (سان ماريا) فى (بورتيكو) ، لتقيم فيه « لوكريشيا » . وانتقلت الفادة الصغيرة ـ ذات الاثنى عشر ربيعا ـ تصحبها سيدات عائلة « أورسينى » ، وبينهن « جوليا » ـ الى ذلك القصر ، الذى لم يكن قريبا من كنيسة « سان بيتر » فقط ، وانما متصلا كذلك بالقصر البابوى .

وليس مما يبعث على الدهشة ، عند من يعرف أخـلاق « لوكريشيا » ، أن يراها تنظر الى الأمور الشاذة التى كانت تجـرى أمامها ، كما لو انهـا كانت امورا عادية ، وأن تعتبر بذكائها ودهائها أنه من الأسلم والاحكم أن تتجاهل الاحداث التى تجرى حولها . . وقد أغمضت عينيها عما كانت ترى من نمو الجنين فى أحشاء «جوليا» ، **وصمت أذنيها عن الخطوات المكتومة التى كانت تسمعها فى الليل ، مهرولة فى السرداب السرى الذى يصل بين القصر وجناح البابا فى الفاتيكان !**

فقد أدركت « لوكريشيا » ـ بطبيعتها الأنثوية الناضجة قبل أوانها ـ أن تجاهلها وتسـاهلها واستسـلامها الباسم الراضى بما يدور حولها ، هو أسـهل وأسلم سبيل لكسب قلب أبيها ، وارضاء أدريانا ، والفوز بامتنان جوليا . . وكانت ـ ازاءذلك ـ تنعم بما يضفيه عليها أصفياء والدها وأصدقاؤه من ألوان الثناء والأطراء والهدايا ، مما كان يرضى خيلاءها ، ويشــجع زهوها ، ويشــبع نهمها ، ويشـيع فيها البهجة والسرور . . فما من يوم كان يمـر ، أو ليل كان يمضى الا

تدفقت صنوف وألوف من الهدايا والهبات النادرة الفاخرة المجلوبة من كل أنحاء الدنيا ، على قصر « سانتا ماريا » ، حيث كانت عشيقة البابا ، وابنة البابا ، تكونان له بطانة وبلاطا تحت رعاية المربية الفاضلة الجليلة « أدريانا أورسينى » ! !

ومع الوقت ، بدأ المترددون على القصر يدركون ان السيدة « أدريانا » ـ مع كل صلفها الأسبانى ـ **كانت على أتم استعداد لأن تتقبل الذهب والمجوهرات ، فى نظير ما تؤديه تلميذتها « لوكريشيا » من الخدمات ..** وحين أسر اليها مبعوث (مانتوا) ان « فرانشيسكو جونزاجا » قد اتجهت رغبة فؤاده الى الحصول على قلنسوة كردينال لأخيه « سيجيز موندو » ، تلقى منها الأجابة فورا بأن : **« مادونا لوكريشيا مشغوفة جدا باللآلىء » !**

ووراء كل مظاهر الملق ، وفاخر الهدايا ، كان أرباب السياسة يحققون مطامعهم التى يتنافسون فى الحصول عليها ، وكان فى مقدمة هؤلاء حكام (نابولى) و (ميلان) .. فالأضواء التى انبعثت فى ميلان احتفالا بتتويج البابا ، كانت تعبر عن مطامع وآمال عاهلها «لودفيكو سفورزا» ، اذ كانت أصوات أخيه الانتخابية من أهم عوامل نجاح البابا الجديد فى الجلوس على عرشه .

وبرغم ان «اليكسندر» السادس بر بوعده الى «سكانيو سفورزا » ـ اذ عينه مستشارا للفاتيكان ، واهداه قصر بورجيا ـ فلم يلبث ان تجلى للجميع أن البابا الأسبانى قد وضع خطته الخاصة ، وأرسى قواعد سياسته الشخصية :

فما مضى شهر واحد على جلوسه ، حتى كان أقاربه قد احتلوا الفاتيكان ، وكان أول كردينال رسمه ، هو أحد أبناء أخيه !

ومع ذلك ، فان ما أبداه البابا من همة وحماس فى العمل على اعادة الامن والنظام فى عاصمته ، قد أكسبه اعجاب مواطنيه. فقد كان — من الوجهتين البدنية والعقلية — مازال شابا . . وكانت قوته ونضرته ومقاومته لكل صورة من صور الارهاق ، وتصديه لكل صنف من صنوف المشاق ، فوق ما يتصور كل خيال .

***

وكان — خلال الاشهر الأولى — يبدو حقا مثال الحاكم الحازم الحريص على العدل والنظام . فضرب بيد من حديد على الفوضى التى كانت تسود المدينة ، وأمسك بأزمة الأمور ، وفتح ابوابه لكل مظلوم ؛ وراح يدرس الشكايات بنفسه ، ويقضى فيها حسب العدل والدين . . كما امر بتشكيل مجلس خاص لفحص قضايا المسجونين والمعتقلين من ضحايا الحكام السابقين .

ولكى يبدى مابينه وبين سلفه من فارق عظيم ، عمد الى الاقتصاد الشديد فى مصاريفه الخاصة : فما كانت مائدته تحتوى أكثر من صنف واحد من صنوف الطعام . . وان يكن صنفا فاخرا ! . . بل أنه — على خلاف الغالبية العظمى من الكرادلة المرؤوسين له — كان شديد التدقيق ، الى حد الصرامة ، فيما يتعلق بأيام الصوم . . وقد حدث ان طلبت « ايزابيللا ديستته » الى سفير (مانتوا) أن يتوسط لديه فى الحصول لها على رخصة لأعفائها من أداء الصوم الكبير ،

فما كان من البابا الا ان أمره بأن يخطرها بأن : « قداسته يكره مثل هذه التراخيص » !

والى جانب ذلك ، أظهر «أليكسندر» السادس من الفطنة والدهاء – فى شؤون السياسة – ما أسلكه فى عداد الأفذاذ من أربابها . فضلا عما أبداه من معرفة خارقة بطبيعة الجنس البشرى : **تلك المواهب التى مكنته من ان يواجه المشاكل المعقدة والمسائل الشائكة ، التى كانت تحيط بالبابوية فى أوائل حكمه .** اذ ان مظاهر الحماقة والضعف التى غرق فيها أسلافه ، كانت قد فاضت على مصالح الفاتيكان.. وكانوا قد تركوا روما – من جرائها – تحت رحمة البارونات الاقطاعيين ، وقد غدت تخومها عرضة لهجمات الغادرين من جيرانها الطامعين ..

ولكن .. فى ذلك الوقت – الذى كانت فيه ايطاليا فى اشد الحاجة الى يد قوية تقودها وتنجيها من مؤامرات الأمراء المتنابذين المتنافسين – ظهرت بوادر الطمع الطاغى فى مسلك ملك نابولى ، والحقد العنيف الذى تنطوى عليه نفس الكردينال « ديللا روفيرى » .. **حتى لم يعد بد أمام البابا من أن ينهض ، وأن يحشد كل قواه لتوطيد سلطته .**

ومع ذلك ، فلا شك انه كان من مظاهر رد الجميل الى «اسكانيو سفورزا» ، والتسامح والعفو نحو الموقف العدائى لملك نابولى ، انه فى خريف سنة ١٤٩٢ ، تعطف «اليكسندر» السادس ، وقبل زيارة واحد من أبناء عم الكردينال «اسكانيو» – وهو الشاب اليافع «جيوفانى سفورزا» ، سيد بيزارو ، وكونت كوتينيولو – فى ذات الوقت الذى وردت فيه الأنباء بأن الخطبة التى كانت تربط بين « لوكريشيا بورجيا » ، « ودوق جاسيارو دى بروسيدا » ، قد ألغيت رسميا !

الفصل الرابع

• وفى نوفمبر سنة ١٤٩٢ ، وصل خطاب من مبعوث آل فيرارا الى دوق اركول ديسته ، يحمل نبأ وصول «دوق جاسبارو دى بروسيدا » ، الخطيب المنبوذ للوكريشيا .. اذ أن « دوق جاسبارو » ، لم يكد يسمع بأن الكردينال بورجيا قد اعتلى عرش البابوية ، حتى بادر بالابحار من أسبانيا الى أيطاليا ، وقد امتلأ صدره بالآمال العريضة .. اذ كان خطيبا لابنته «لوكريشيا» ، وها هوذا سيغدو زوجا لها ، بعد أن أصبحت ابنة البابا ! !

الا أن امله ما لبث أن خاب ، حين بلغه أن خطوبته قد فسخت .. **فهاج وماج ، وراح يهدد ويتوعد ـ على طريقة الفارس الأسبانى الثائر لكرامته ـ معلنا أنه ، « سيطرح قضيته أمام كل أمراء العالم المسيحى» كى يؤكد حقوقه ..**

على انه لم ينقض أسبوع واحد ، حتى كانت كبرياء « دوق جاسبارو » قد لانت ، وثورته قد هدأت ، بفضل هدية مقدارها ثلاثة آلاف دوقية ! .. وهكذا خرج من حياة « لوكريشيا » خطيب آخر .. من أولئك « الدمى » الذين جاء بهم أبوها ثم طردهم ، فى خلال شهور قليلة ..

وفى ذات الوقت الذى وصل فيه « دوق جاسبارو » الى روما ، وصل اليها شابان آخران : أحدهما « جيوفانى سفورزا» ، والآخر «الفونسو ديسته » ، الذى جاء ـ بوصفه وارث دوقية فيرارا ـ ليقدم فروض الولاء للبابا الجديد .

أما « جيوفانى سفورزا » فقد جاء متخفيا . ولم تكن «لوكريشيا» لتعلم أبدا بوجوده فى المدينة .. وأما «ألفونسو ديسته » ، فلابد أنها كانت تلتقي به ـ على الدوام ـ فى

بلاط أبيها . وكان ذلك الأمير الشاب جافا فى أسلوبه ، مقتصدا فى كلامه ، جنديا حقيقيا أكثر مما هو رجل مجتمع ؛ وجليس ملوك . فلاريب انه بدا غريبا بين كهنة الكنيسة الناعمى الألفاظ ، ورجال السياسة اللينى الجانب ، الذين يتكون منهم الوسط البابوى .

ولم يكن ـ بوجهه الصارم ، وجسمه العملاق ـ ليبدو من ذلك الطراز الذى يروق لصبية دقيقة الحس ، رقيقة النفس ، خيالية المشاعر .. مثل « لوكريشيا » ، التى كان جمال أخوتها الذكور ، هو مقياسها فى نظرتها نحو الرجال .

ولذا فلم يكن ثمة بد من أن تمر عشر سنوات أخرى .. عشر سنوات فاجعة ، قبل ان تجد لها مرفأ نهائيا تلجأ اليه بزواجها من ((ألفونسو ديسته)) ..

ولم يكن آل بورجيا ـ بالنسبة لعائلة هذا الأمير المتغطرس ـ الا اغراب محدثى نعمة من الاسبانيين !

وعلى الرغم مما كانت طبيعة البابا تنطوى عليه ، من عجرفة وكبرياء ؛ فقد ارتضى لنفسه فى أن يطمع فى أن يتخذ ابن زنا ، من آل سفورزا ، زوجا لابنته .. اذ كان «جيوفانى سفورزا » ، هو الابن غير الشرعى « لكونستانزو » ، أمير (كوتينيولو) ، وطاغية (بيزارو) ، وسليل أسرة «سفورزا» ، صاحبة السلطة فى ميلان .. واذ كان «جيوفانى» يعيش فى عصر لم يكن الزنا فيه وصمة عار ، فانه لم يرث ولاية أبيه فحسب ، وانما ورث جاهه ، فتزوج بسيدة من أسرة « جونزاجا » العريقة ..وباعتباره صهرا لمركيز (مانتوا) ، ولدوقة (ايربان) ، فقد عاش عيشة راقية جدا .

الا أنه لم يكد يبلغ السادسة والعشرين من عمره ، حتى فقد زوجته ، ووجد نفسه أرملا .. وفى ذات الوقت مفلسا !

.. فراح يستعمل تلك الوسائل الكيسة ، والدهاء الخارق ؛

كى يعقد مصاهرة أخرى أكثر شرفا ورفعة . وقد كان فى مظهره ذكيا المعيا ، شجاعا ، شهما .. ولكنه كان ـ فى حقيقته ، وتحت هذا المظهر الخادع ـ تافه العقل وضيع النفس .. كان مع رؤسائه خاشعا ذليلا ، ومع مرؤوسيه شرسا متغطرسا .. وكان جبانا وقاسيا فى آن واحد .. فضلا عن انه كان ـ فوق كل شىء ـ طماعا جشعا ، **وكان طمعه وجشعه ـ وحدهما ـ هما اللذان قاداه وأغرياه بأن يسعى لأن يكون زوجا لبنت البابا .**

على ان «جيوفانى سفورزا» كان ـ فى نظر البابا اليكسندر ـ يمثل موقعا حربيا ، اكثر منه رجلا من دم ولحم .. فقد رأى البابا بعينه النافذة ، أنه لو وافق على زواج أبنته من جيوفانى ، لضمن موقعا حربيا على (الأدرياتيك) ، ومحالفة طبيعية مع آل سفورزا ، المسيطرين على (جنوا) .

***

وهكذا أشيع أن الشاب الذى دعى سرا الى الفاتيكان ـ فى أواخر خريف سنة ١٤٩٢ ـ هو العريس المنتظر للوكريشيا ..

وكانت لوكريشيا هى الوحيدة التى ظلت على غير علم بهذه الشائعات . **لأنها خلال السنة الاخيرة ، الفت ان تنظر الى خطابها المتعددين ، كمجرد شخوص عابرة ، غير مستقرة . ولم ينجح واحد منهم أبدا فى أن يعبر عتبة قصرها ..** وربما أثارت اهتمامها الأنباء التى وردت بأن أخاها «سيزار» فى طريق عودته الى روما ، أكثر مما أثار اهتمامها أن « جيوفانى سفورزا » قد قام بزيارة سرية للفاتيكان !

وكانت عودة «سيزار بورجيا» ـ باعتباره أسقف فالنسيا ـ هى المؤذن الأول بما انجذبت اليه البابوية ... ذلك لان

الاسقف الشاب لم يعمد فقط الى هجر مهنته ، ولكنه أعلن صراحة كراهيته للكهنوت ، ولم يحاول ان يخفى عدم مبالاته بمظاهر الشرف الأكليريكية التى كان البابا يسبغها عليه .. بل أنه راح ـ وهو فى سن الثامنة عشرة ـ يتصرف فى تحرر تام . فألقى كل قيود مهنته جانبا ، جاعلا من نفسه قانون نفسه ، خالبا لب الرجال والنساء على السواء ، بجمال جسمه اللدن الرطيب ، وبابتسامته الخلابة الجذابة .. وان اخفى سحر هذا الجسد نفسا كافرة مظلمة ، ونفسية متمردة جموحة ! .. فاذا أولئك الذين كان من سوء طالعهم وتعاستهم انهم احبوه ، يصبحون عبيدا له ، وقد سلبهم مجرد الحق فى ان يتصرفوا فى حياتهم او مشاعرهم كما يهوون !

ولقد عاد « جيوفانى » الى « لوكريشيا » ، مرددا على مسمعيها ذكريات الطفولة واحلام الصبا ، وكأنه عشيق لها ، وليس شقيقا !..

ولم تمض ستة اسابيع على زيارة « جيوفانى سفورزا » للفاتيكان ، حتى كان مسجل العقود يعد العدة لعقد قران « لوكريشيا » .. وفى تلك الاثناء ، كان « سيزار بورجيا » قد اتخذ لنفسه مسكنا فى (البورجو) ، على مرمى حجر من قصر اخته .. ولما كانا محوطين بمفاسد البلاط البابوى ، غارقين فيما كان يطغى عليه من انحلال خلقى ، فقد تهيأت كل الظروف التى تدفع **كلا من الكاهن الشاب الذى كان يجهل تبعات منصبه ـ او يتمرد عليها ـ والصبية الصغيرة الغريرة ، الى ان يجد فى الآخر بغيته .. ومتعته !**

اجل ، كانت كل الظروف مهياة .. فقد كان « سيزار » بحيويته العارمة ، وشهوته التى لاتنضب ، يرهق نفسه فى العبث والمجون .. حتى اذا استبد به الوهن والانهاك ، آوى

الى أخته الصغيرة ، التى كانت ـ بمرحها وسحرها ، وحلاوتها وطلاوة حديثها ـ تعينه على أن يستعيد ما بدد من قوة ، ليستعد لشوط جديد !

أما «لوكريشيا» ، فقد كانت هى الأخرى تمتلىء نضارة ، وغضارة ، وشوقا الى الاحساس بملذات الصبا وأنفاس الرجال.. وكانت مع ذلك صبية فى الفاتيكان ، فما كان أحد ليجرؤ على أن يطارحها ما تشتهى من هوى وهيام .. **ومن ثم فلم يكن أمامها غير شقيقها ليحقق لها آمال صبابتها وأحلام صباها ! !**

وفى هذه الأثناء ، انطلقت الشائعات بأن «سيزار بورجيا» قد اعفى من قيود الكهنوت ، لكى يخطب له ابوه اميرة من (آراجون) ، وان ملك (نابولى) هو الذى اشار بذلك ، أملا فى ان يكبح جماح مطامع آل سفورزا .. ومع ان « البابا » شجع هذه الشائعات على ان تنمو وتنتشر ، الا انه ـ فى الواقع ـ لم يكن قد فكر فى شىء من هذا ، وبالنسبة لسيزار بالذات .. ولا كان يأمن جانب ملك (نابولى) ويطمئن اليه ، حتى يأخذ بنصحه وايعازه !

بل ان البابا اليكسندر كان ـ فى تلك الاثناء بالذات ـ منصرفا الى اتخاذ الاحتياطات العسكرية لحماية حدوده من اية اغارة من جانب (نابولى) ،او (فلورنسا) ، أو « آل اورسينى » .. حتى انه استدعى ولده الآخر « جان بورجيا » ، الذى كان يعتقد ان اقامته فى البلاط الاسبانى قد اهلته لان يكون قائدا عسكريا !

***

ووصل «جان» الى ايطاليا ، فى الوقت الذى اذيعت فيه رسميا خطبة الصبية ـ ابنة الاثنى عشر ربيعا ـ «لوكريشيا

بورجيا » ، الى «جيوفانى سفورزا » ، دوق (كوتينيولو) ، وسيد (بيزارو) .

ولم يعد سرا ان البابا قد رسم سياسته على ان يسعى الى تحقيق مصالحه ، فى الوقت الذى يخدم فيه مصالح الكنيسة .. ولم يخف ذلك على آل سفورزا ، فكانت المفاوضات التى دارت حول شروط عقد الزواج ، محفوفه بالتحوط وعدم الثقة .. من الجانبين !

وما ان ابرم عقد المصاهرة بين اسرتى « بورجيا » و «سفورزا» ، حتى اصبحت (روما) مركز نشاط عسكرى، اذ بادر الحرس البابوى الى تجنيد قوات جديدة . بينما ظل البابا سادرا فى رعاية مصالح اسرته ! .. وقد ادى الغيظ بملك (آراجون) — «فيرانت» — ان كتب الى ابن عمه ملك اسبانيا ، يقول :

« ان البابا الجديد يحيا حياة فاضحة ، مكشوفة ، غير مقيم اى اعتبار للمركز الذى يشغله . فهو لايهتم الا برعاية مصالح اولاده ، بوسائل قذرة بالغة الانحطاط .. وقد اصبحت روما تعج بالجنود ، حتى انهم اليوم اكثر من رجال الدين .. اما الكرادلة ، فاما ان يلوذوا بالصمت مجبرين ، أو ينأون بأنفسهم عن روما . »

ومع ذلك .. فلم تكد تنقضى ثلاثة اشهر على هذه الرسالة ، حتى كان « فيرانت » يتفاوض على عقد مصاهرة مع آل « بورجيا » !

وفى ٨ يونيو سنة ١٤٩٣ ، ارتفعت الأعلام المزدانة برسم الاسد — شعار آل سفورزا — والثور ، شعار آل بورجيا ، مرفرفة فوق هامات ابنية روما ، معلنة وصول « جيوفانى سفورزا» — خطيب «لوكريشيا» — الى العاصمة .. وكان — فى هذه المرة — يعود فى زيارة رسمية ، بعد ان نجحت

مفاوضاته فى الزيارة السرية !.. وهنالك ، استقبل استقبال الملوك . وعلى صوت الأبواق ، وضرب الطبول ، وهتاف الجماهير ، اجتاز موكبه أبواب القصر البابوى .. وكان الكرادلة قد أوفدوا بعض أعضاء مجمعهم للترحيب به . وجاء سفيرا (ميلان) و (فينسيا) بنفسيهما ، **ليذكره أولهما بصداقة ابن عمه التى لا تنقضى ، وليؤكد له الثانى حسن نوايا الدولة المتاخمة !**

أما الشخصيتان اللتان ازدان الموكب الحافل بطلعتيهما المتلألئتين ، وهامتيهما المتلئتين الفارعتين ، وأرديتهما الفحمة الفاخرة ، فهما شقيقا العروس : أسقف فالنسيا ، ودوق جانديا .

ومر الموكب ــ فى عظمة وجلال ــ خلال (الكامبو دى فيورى) ، عابرا جسر (سان أنجيلو) الى (البورجو) .. ثم توقف قليلا تحت شرفة قصر «سانتا ماريا» فى (بورتيكو) .. **وفى ضوء شمس الصيف الساطعة المتألقة ، لاحت «أوكريشيا» تطل متطلعة الى عريسها .. وكانت تلك هى المرة الأولى التى وقعت فيها عليه عيناها .** فلما أبصرته تألق فى محياها بريق الأعجاب والسرور : اذ بدا لها رشيقا ، انيقا ، بردائه الفاخر وأوسمته المتلألئة . فما كان لها بعد من الخبرة بالرجال ما يتيح لها أن تلحظ ما فيه من عيوب .. اجل ، لم تلحظ عينيه الضيقتين الخبيثتين ، ولا شفتيه المطبقتين القاسيتين ، ولا ابتسامته الباهتة الباردة ، التى تنم عنها أسارير وجهه الجافة الجافية ..

كل الذى استرعى نظرها ، أو استخف سرورها ، ماخالته من ظرف حركته حين انحنى على ظهر جواده كى يحييها ، وهو محوط ببهاء حاشيته ، والجماهير تهتف من حوله ،

وحملة البيارق يلوحون بها فى طريقه ، وقد استل ضباط حرسه سيوفهم ، هاتفين بقسم الولاء لكونتتهم الجديدة !

وكانت واقفة فى ردائها المصنوع من المخمل القرمزى ، والموشى باللآلىء واليواقيت .. ومحياها الساحر السافر يشع بالفتنة ، وقد احاطت به هالة من شعرها الذهبى .. فما رآها ((جيوفانى)) حتى برقت فى عينيه الباردتين بارقة سعادة وسرور .

والى جانبها ، كانت تقف راعيتها ((أدريانا)) ، تهمس لها بتوجيهاتها وتوصياتها ، وتلهمها كل عبارة تقولها ، أو اشارة تبدر منها ..

***

كانت ادريانا تفهمها كل شىء ، وتلهمها كل شىء . ولكن هل تراها أفهمتها او الهمتها معنى الروابط الزوجية أو واجبات الزوجة نحو زوجها ؟!

ذلك أمر فيه شك !.. فما كان زواج لوكريشيا الا معاهدة سياسية خالصة . وماكان البابا ليبغى من ورائه الا اكتساب أية مصلحة محتملة . والسياسة سريعة التطور ، والمصالح سريعة التحول والتحور . واذا قدر للوكريشيا ان تكون من الغفلة بحيث تقع فى حب زوجها ، أو تشرع فى الاخلاص له ، فما كان هذا ليعود الا بمتاعب لابيها ومصاعب يعانيها فى سياسته ومصالح بابويته !.. وما كان ذلك ليخفى على ((أدريانا)) ، صديقته الخبيرة بحقيقة نواياه !!

ولقد كان البابا ينظر فعلا بعين الريبة والشك الى ما يبديه ((لودفيكو سفورزا)) من غبطة بهذا الزواج ، فى ذات الوقت الذى تصل فيه أنباء دسائسه مع فرنسا . الا أن شيئا من هذه الشكوك لم يبد ــ مع ذلك ــ فى الترحاب

العظيم الذىاستقبل به زوج ابنته ، الذى كتب ــ فى مساء ذلك اليوم ــ الى ابن عمه « لودفيكو » يقول انه : « قد سر سرورا كبيرا بعروسه .. وقد كان قداسة البابا فى منتهى الفرح والمرح » ..

الفصل الخامس

• **وراح** المنجمون يسألون نجومهم عن أسعد الأوقات لعقد القران . فأشارت النجوم الى يوم من أيام الصيف .. الى ١٢ يونيو سنة ١٤٩٣ .

وفى ذلك اليوم تم زواج لوكريشيا .. وقد ألبسوها ثوب الزفاف الذهبى ، وزينوها بالجوهرات واليواقيت ، وصبغوا ثغرها الرقيق بلون العقيق ، ومحياها الرشيق بحمرة الورد ، وعقصوا شعرها الأشقر الطويل بذلك الشريط الجميل الذى تلبسه العرائس فى ليلة الزفاف . **وجاؤوا بطفلة سوداء وألبسوها ثوبا كثوب لوكريشيا ، وزينوها بذات زينتها ، وأعدوها لكى تحمل فى حفل الزفاف ذيل ردائها ! ..** واجتمعت حواليها أربعون غادة من أشهر غادات روما فتنة وجمالا ، يتهادين فى أثوابهن الفخمة الفاخرة ، وقد كشفن عن نحورهن البضة .. كى تبدو العروس بينهن كالبدر المنير وسط النجوم اللامعة !

واذ وضعت « جوليا » فى ثوب العروس آخر جوهرة ، وهمست «أدريانا» فى أذنها آخر نصيحة ، أصبحت مستعدة ــ وهى فى كامل سنائها وبهائها ــ لأن تضع ذراعها فى ذراع شقيقها ــ دوق جانديا ــ كى يرافقها فى موكب عرسها .. وبين هتافات آلاف الجماهير ، وصفوف الصبايا يحملن

باقات الزهور ، سار الموكب يتهادى على أنغام الأغنيات والأناشيد .

وهناك ـ فى الكنيسة ـ كان ((البابا)) فى انتظارهم ، ليقوم بمراسيم زواج ابنته .. وفى زحمة الجماهير ـ داخل الكنيسة ـ اختل النظام ، واختلط الحابل بالنابل .. وبينما كان الأمراء والسفراء والوزراء وعظماء الدولة وأعضاء مجلس الشيوخ ، واقفين فى مدخل الكنيسة ـ لايجدون مكانا لجلوسهم ـ كان البابا ، وأحدعشر من كرادلته ، وعدد كبير من أساقفته وموظفى قصره ، قد احتلوا مقاعد الكنيسة كلها ، تتوسطهم الأربعون غادة من غادات روما ، بنحورهن البضة ، وصدورهن العارية !

وقد تم الزواج فى الجناح الجديد للبابا ، حيث كان « بنتريشيو » قد بدأ فى تصوير اللوحات التى تخلد اليوم « رودريجو بورجيا » .. **هنالك نراه فى أحدى تلك اللوحات راكعا أمام ((صورة القيامة)) ، وقد بدا بدينا ، دنيويا ، شهوانيا ، غليظ الشفاه ، مثقلا بالشحم واللحم والمجوهرات .**

وفى تلك الغرف الصغيرة المزدحمة ، حيث كانت رائحة البخور والشمع المذاب ، وزجاجات الطيب المطعمة بالجواهر ، مختلطة بشذى الأجساد الفاتنة ، والكرادلة فى أثوابهم الأرجوانية والحمراء ، تحتك مناكبهم باجمل نساء روما ، بدت لوكريشيا كمخلوق صغير فاتن ؛ وهى راكعة الى جوار ذلك الغريب الذى قدر عليها ـ منذ اليوم ـ أن تدعوه زوجها ، والذى لاحظت الآن لأول مرة ، ابتسامته الباردة الباهتة !

وما ان تمت مراسيم الزواج ، حتى بدأت الأفراح ، التى امتدت الى الصباح . وقد بلغت من الاسراف حد الأتلاف ، حتى لقد كان الذى تناثر من نوافذ القصر ـ على الجمهور

المتزاحم فى الطـرقات ـ من افخم وافخـر انواع الحلوى ، ما تزيد قيمته وحده على الألف من الجنيهات ! .. **ولعبت الخمر بالألباب ، ولكن عقول الشـيوخ والشباب كانت اقل تأثر بالانبذة منها بفتنة أجساد النساء وقد تعرت من أغلب الثياب !**

وفى آخـر الليل ، أقام البابا حفلة عشـاء خاصة ، دعى اليها ثلاثة من الكـرادلة ، وأربعة من السـفراء . وجلس «قداسته» على رأس المائدة ، والى جانبه ، جلست عشيقته « جوليا فارنيزى » !

***

وكان « سيزار » هو الوحيـد بين آل بورجيا ، الذى لم يحضر المأدبة البـابوية . وأنه لعجيب أن ذلك الشـقيق ـ الذى كان حتى هذه اللحظة محتلا كل حياة «لوكريشيا» ـ لم يكن له دور يؤديه فى حفل زفافها . فما رآه أحد الا فترة وجيزة ، أثناء القداس فى الكنيسة . **ثم اختفى عن الأنظار ـ بعـد ذلك ـ طول النهار وكل الليل ، متعمـدا أن يتجنب رؤية أخته فى ثياب عرسها !**

ولكن اين كانت « لوكريشيا » وسـط كل هـذه الأفراح الدائرة من حولها ومن أجلها .. ؟

كانت تؤدى دورها خلال الست عشرة ساعة التى تتابعت ـ منذ بدء الأحتفالات ـ حسب توجيهات ادريانا وتوصياتها .. فهل ياترى كانت كالدمية ، أو كانت كالآلة تتحرك دون ارادة لها ولا شعور ؟.. او كان ثمة وقت نسيت فيه نفسها ـ كما فعل الآخرون ـ والقت القيود ، وتخطت الحـدود ، واندمجت فى دنيا المجون والفتون التى أحاطت بـها فى تلك

الليلة الصاخبة المعربدة ، مضطرمة بذلك الدم النارى الذى عرف عن آل بورجيا .. ؟

كل ما رأته وما سمعته فى تلك الليلة كان نابيا عن كل ادب واحتشام : كانت الرواية التمثيلية الهزلية داعرة ، هزت أعطاف ابيها بالمرح والانبساط .. وضحكت هى كثيرا مما فيها من النكات والغمزات ! .. وكانت النظرات فاضحة ، والعبارات والاشارات والابتسامات التى تصدر من الرجال والنساء ناضحة بالفجور .. وكانت الأغنيات سفيهة بذيئة ، اصطبغت لها وجنات « العريس » بحمرة الحياء !

كل هذا كان قمينا بأن يهيج « لوكريشيا » ، ويملأ بدماء الشباب اوداجها .. وفى نشوتها وشدة فرحتها ، نسيت كل تعليمات « ادريانا » وتوجيهاتها ، وغفلت عن كل نصائحها وتوصياتها .. **بل انها نسيت ذلك الفتى الجاف الطباع ، الجالس بجانبها ، ودفعت من على رأسها تاج عرسها ، واندفعت ترقص مع شقيقها ، تلك الرقصات الأسبانية الخليعة التى تعلمتها فى طفولتها** ..وقد تهدل شعرها الطويل الأشقر على كتفيها ، وراح جسدها الرقيق ، اللدن ، يتمايل متابعا نغمات الموسيقى ، وضيوف أبيها يلتهمون بنظراتهم النهمة مفاتنها الشهية .. وقداسته تتألق بين شفتيه بسمة السعادة الأبوية !

وعند الفجر ، وقد انتهى الاحتفال وانصرف المدعوون ، قامت العروس الصغيرة ، فاستلقت على ذات السرير الذى اعتادت ان تنام عليه قبل زواجها ، **تاركة عريسها ليخرج وحده متسكعا فى الشوارع ، كى يطفىء نار غيظه وشكوكه فى حانات المدينة ومواخيرها !**

وعلى هذه الوتيرة استمرت ـ بعد ذلك ـ الليالى والأيام، وكأنما لم يحدث زواج ،وكأنما ماجرى كان حلما من الأحلام . وما لبث « جيوفانى سفورزا » أن أفاق الى نفسه ، وأدرك الحقيقة التى كانت خافية عليه ، وفهم السر فى ذلك الشرط الذى اشترطه البابا فى عقد الزواج ، ونص على أنه : **((لما كانت مادونا لوكريشيا لاتزال دون سن الزواج ، فلها أن لاتصحب زوجها الى بيزارو الا بعد عام كامل))** .. فكأنما كان « العريس » ـ بهذا الشرط ـ غريبا فى قصرها !

ومع ذلك ، فقد كان ثمة مقابل يجد فيه جيوفانى عزاء عن ذلك المركز الحرج الذى وجد نفسه واقعا فيه : اذ بعد يومين فقط من حفل الزواج ، جاءت المناسبة لكى يظهر لأول مرة فى المجتمع بصفة رسمية ، باعتباره زوج بنت البابا .. وذلك حينما عهد اليه مع دوق جانديا ، بمرافقة السفير الأسبانى الجديد الى روما .. وفى هذا الصدد ، كتب أحد المؤرخين يقول : **((أنهما كلاهما ، أمير الولاية وزوجته ـ بنت البابا من الزنا ـ قد أضفيا على نفسيهما الجو الذى يحيط بالملوك))** .

وفى يوم الزفاف بالذات ، وصل الى روما سفير من لدى ملك اسبانيا وملكتها .. وكانت الرسالة التى حملها الى قداسة البابا ، تحمل رغبتهما فى ان يغير من سياسته ، التى كان يبدو انها تميل الى التقرب من فرنسا .. بيد انهما ما كانا بحاجة الى محاولة الضغط على البابا ، اذ ان قداسته لم يغادر حفل زفاف ابنته ، الا وقد بدأ ينظر الى آل « سفورزا » والى فرنسا بعين حذرة متيقظة .. اذ كان

جواسيسه قد اكتشفوا بين آل سفورزا والسفير الفرنسى ـ فى بلاطه ـ علاقة خفية اثارت ريبه ..

وما كان مثل هذا التغير ليغيب عن عينى « جيوفانى سفورزا » ، فحومت الهواجس حول فرحته ، وهو الذى كان يعرف كيف تتغير تيارات السياسة فى اوروبا ـ فى ذلك الحين ـ بأسرع مما يلتقط المرء انفاسه .. وداخله الخوف من ان يتعرض مركزه للخطر ، قبل ان يتمتع بأن يضمه وعروسه سرير واحد !

وفى ذات الوقت الذى استقبل فيه السفير الأسبانى ـ فى روما ـ باعتباره ممثل اعظم دولة فى أوربا ، كان «فيرانت» ملك (آراجون) يوقع عقد مصاهرة مع آل بورجيا ، عارضا يد احدى حفيداته للزواج من «جوفريه» ، أصغر أبناء البابا .. وكان «فيرانت» بالذات ، هو الذى حرض ملكى اسبانيا على محاولة الضغط على البابا ، واثار شكوكهما بصدد ميول قداسته الى فرنسا ! !

وقد كتب سفير ميلان الى « اودفيكو سفورزا » يقول : « **أن كثيرين يؤكدون أن البابا ـ منذ جلس على عرش البابوية ـ قد فقد عقله . الا أننى من جانبى ، أعتقد أن الأمر على العكس تماما** . فهو قد أبدى منتهى البراعة اذ زوج ابنته لواحد من آل سفورزا ، فأحرز بذلك دخلا من دوقية ميلان .. ثم افلح فى أخضاع «فرجينيو أورسينى» ، واجبره على أن يدفع ثمنا باهظا لصداقته .. وها هوذا أخيرا قد توصل الى أن يعقد مصاهرة بين عائلته وعائلة الملك «فيرانت» .. فهل هذه أفعال رجل فقد عقله ؟ .. ان كل ما بقى عليه الآن أن يفعله ، هو ان يتمتع بسلطانه فى سلام » ! !

الفصل السادس

• وأصبحت «لوكريشيا» امرأة متزوجة .. ولكنها وان راحت تتمتع بكل حقوق الزوجية ، لم تلتزم بأى واجب من واجباتها . فلم يكن «جيوفانى سفورزا» أكثر من صورة فى قصرها .. القصر الذى كانت «جوليا» ــ عشيقة البابا ــ تشاطرها اياه ، تحيط بها على الدوام بطانة من المداهنين والمتملقين والأفاقين ذوى الحاجات والمطامع فى البلاط البابوى .. **وحيث كانت ابنة البابا تستقبل أخويها ، أو تخرج فى صحبتهما ، فى أية ساعة من ساعات النهار أو الليل ، دون مراعاة لوجود ذلك الزوج الصورى !**

ولطالما صحبت أخويها الى مهرجانات مصارعة الثيران ، أو منازلة الصقور .. وكثيرا ما انطلقت معهما على متون الجياد، فوق منحدرات (مونتى ماريو) .. واكثر من ذلك ، انهما اتخذا قصرها وكرا لغزواتهما الخاطفة ، ولاشباع نزواتهما المشبوبة أبدا .. أو لأقامة حفلاتهما الراقصة ، وسهراتهما البربرية الصاخبة !

وهكذا أعاد ابناء البابا تشكيل عالمهم المغلق ، الذى كان يضمهم أيام طفولتهم .. وارتدوا الى سالف مرحهم ، يحيون الليالى بأفراحهم ، ويملأون جنبات قصرهم العالى بضحكهم ومزاحهم مع مهرجيهم الأسبانيين .. ويتسامرون ويتسارون فيما بينهم ، بلغتهم الفالنسية الخاصة .. **وبينذاك ، كان الأخوان يتنافسان على التقرب الى أختهما ، وأرضائها ، والاستئثار بالحظوة لديها** .. وكانت اختهما ــ من ناحيتها ــ تجد مسرتها وسعادتها فى تنافسهما والاستماع الى تحببهما وتشببهما ، أكثر مما كانت تجد فى احاديث زوجها !

وكان « جيوفانى سفورزا » نادرا ما يندمج فى تلك الاجتماعات العائلية الماجنة ، وبدأت تريبه مخاصماتهم العنيفة ، ومصالحاتهم السريعة ، وغيرة الأخوين الجارفة المخالفة للطبيعة .. فلم تكن هذه كلها عواطف يفهمها « جيوفانى » أو يستسيغها . ولما كان قد اعتاد ان يبنى حكمه على قيم المستوى الذى ألفه فى أسرتى « جونزاجا » و « مونت فلتروا » ، فقد بدا أمامه أولئك الاصهار الجدد من آل بورجيا ، قوما فى منتهى التفاهة والانحلال الاجتماعى فى مجونهم ، ولهوهم ، ومسراتهم .. فما كان من المناسب — فى نظره — بالنسبة الى كونتة بيزارو أن تشهد مصارعات الثيران ، أو اجتماعات الرقص الأسبانى الخليع أمام البابا وكرادلته !

على ان احدا لم يكن يسأله رأيه أو يستشيره ، بالرغم من أنه كان — من الناحية الرسمية — السيد فى منزل الزوجية !

وما كاد يمر شهران على حفل الزواج — الذى كان جيوفانى يبنى عليه أكبر الآمال — حتى وجد نفسه مضطرا لأن يحضر الاحتفال الذى أقيم لمناسبة المصاهرة الجديدة مع (نابولى) ، عندما عقدت خطبة « جيوفانى بورجيا » — **البالغ من العمر احد عشر عاما !** — على « سانشيا » الأراجونية ، التى كانت فى **السادسة عشر ربيعا !** .. وكانت الأبنة غير الشرعية لألفونسو ، دوق كالابريا !

وحتى حفل الخطبة هذا ، حوله آل بورجيا الى مسرحية هازلة ، اذ قامت العروس بتمثيل دور العذراء الشديدة الخفر والحياء . فانفجر البابا وأصدقاؤه ضاحكين . ثم ازداد ضحكهم علوا وعنفا ، حينما قال بعض افراد وفد نابولى

لخصفهم أن ((سانشيا)) **الجميلة ، لم تكن عذراء خفرة ، وأنما هى بارعة فى كل فنون الحب !**

وكان جيوفانى ينظر الى مثل هذه الحفلات صامتا ، فى حين كانت « لوكريشيا » تندمج بكل كيانها فيما يدور فيها من ألوان التهتك والتهريج ، تحت قيادة أخويها وارشادهما .

***

على أن الأمور اخذت تزداد تعقدا فى قصر (سانتا ماريا) — فى (بورتيكو) — منذ عودة «جان» الى روما .. لا من جراء كراهية «سيزار» لأخيه وغيرته منه فحسب ، وأنما بسبب نفورهما المشترك مما رأياه من نفوذ «جوليا فارنيزى» ، حتى لقد عقدا العزم على اخراجها — هى وأدريانا — من القصر .. ومع أن « جوليا » كانت — فى ذلك الحين — فى قمة قوتها ونفوذها ، اذ كان البابا واقعا — تلهبه عوامل شيخوخته — تحت سطوة اغرائها وأغوائها ، **الا أنه كان مستحيلا كل الأستحالة لأية امرأة مهما تكن مغرية وشهية أن ترضى أحاسيس رجل من آل بورجيا !**

وقد كان ولدا البابا — منذ عودتهما الى روما — يعاونان عن قصد على أشباع شهوانية أبيهم التى لا حد لها ، ويشجعانه على فجوره .. وقد راجت الشائعات عن فتيات صغيرات كن يجتلبن بدعوى أنهن وصيفات ، ويتسللن أثناء الليل الى الفاتيكان .. وكان دوق جانديا — من جانبه — قد جلب معه من أسبانيا غانية فالنسية ، وجارية مراكشية .. وقد تفضل فأشرك البابا معه فى التمتع بهما !

ولقد كان الولدان — نظرا لشبابهما — أكثر فسادا وفجورا من أبيهما ، الذى كان — برغم شراهة شهواته الجنسية — طبيعيا فى مسلكه .. ومهما يدعى أعداؤه عكس

ذلك ، **فليس من دليل واحد على أن ((روديجو بورجيا)) قد قارف أيه ممارسة شاذة** ، من ذلك النوع الذى كان شائعا بين الأمراء فى عهد النهضة .. وكان برغم افراطه وجموحه فى اشباع ميوله الجسدية ، تغلب عليه ــ على العموم ــ طبيعته الفالنسية الرقيقة .. على خلاف ولديه المولدين ، اللذين كان يغلى فى عروقهما الدم البربرى ، ويطغى فيهما على الطبع الأسبانى ، فغرس فى أعماقهما جذور ضراوة فطرية حيوانية ادت بهما الى البحث عن احاسيس جديدة منحرفة .. **حتى لقد ذاعت الشائعات حول العلاقة الآثمة التى جمعت بين ((جان)) والأمير ((نجم الدين)) . وكان اسيرا تركيا ، رهينة فى ((الفاتيكان))** .

واطالما تطلع الحجاج الوافدون الى ميدان (سان بيتر) ــ فى تساؤل وذهول ــ نحو ابن البابا ، بصحبة ذلك الأمير التركى الجميل ، شقيق السلطان ، وهما منطلقان على متن جواديهما الى خارج الفاتيكان .. وقد تسربلا بكسوة شرقية كاملة ، وتوج كل منهما رأسه بعمامة رشيقة مطعمة بالياقوت المضىء بلون اللهب ، واتشح بعباءة من الحرير الهفهاف المطرز بخيوط الفضة والذهب ..

وعلى قدر ما كان البابا متغاضيا عن أعمال ولده ، وغاضا الطرف عما فى تصرفاته من مجون وجنون ، فقد بدا يستشعر القلق والتوجس من تلك الشائعات الذائعة عما يقترف من جرائم الفسق والفجور الشاذة ، فى ذات ردهات الفاتيكان .. خوفا من أن يصل خبرها الى آذان الملكين الأسبانيين قبل أن يتم زواج « جان » .

وفعلا صدر ــ فى أواسط شهر اغسطس ــ الأمر من « البابا » الى « دوق جانديا » بأن ينسحب فى الحال بعيدا

عن مباهج روما وملاهيها ، **لكى يزور عروسه الملكية – التى ورثها مع دوقيته الأسبانية – ويصطحبها الى دوقيته .**

وهبت أيطاليا كلها كى تعد لفتاها المدلل اردية الحرير والمخمل ، ليظهر – أمام الدنيا – بمظهر لايقل عن مظهر أغنى اغنياء اسبانيا . وراح صاغة (روما) يعملون – ليلا ونهارا – فى اعداد المجوهرات التى قرر البابا أن يهبها لأبنه الذى كان يعتبره « درة عينه » !

وقد كتب زوج والدة « جان » الى رؤساء عائلة آل جونزاجا ، يصف الاستقبال الرائع لدوق جانديا فى برشلونة ، قائلا أنه « كان فى انتظاره أعظم رجال الدولة ، فرافقوه الى القصر الملكى . وهنالك استقبله الملك والملكة مرحبين به كفرد من أفراد أسرتهما ، وقدماه بنفسيهما الى العروس . »

ولم ينقض عام واحد – على هذا – حتى بلغ مسامع البابا – وهو يكاد يطير من الفرح – أن ثمة وارثا منتظرا لدوقية جانديا .. وأن سلالة بورجيا قد قدر لها استمرار الحياة !

***

وهكذا رتب البابا شؤون أبنائه : « لوكريشيا » تزوجت بأحد أفراد عائلة سفورزا .. و « جان » وطد أقدامه فى دوقيته الأسبانية .. و « جوفريه » قد ضمن أمارة من امارات نابولى .. ! **ولم يعد هناك سوى ((سيزار)) ، الذى كان يطمع له فى الوظيفة ذات الثوب الأرجوانى : وظيفة الكردينال ..**

وكان الوصول الى هذه المرتبة صعبا بالنسبة الى سيزار ، الذى لم يحاول أبدا أن يثبت أنه كفء لها .. ففى الوقت الذى كان أنصار أبيه فى المجمع المقدس ، يبذلون فيه كل الجهد لاقناع زملائهم بانتخابه ، كان هو ينطلق تحت أنظار

الناس ـ على ظهر جواده ـ خلال شوارع روما ، خالعا ملابسه الكهنوتية ، ومصطحبا معه أخته « لوكريشيا » ، أو خليلته « فياميتا » .. الفاتنة الفلورنسية ذات الشعر الأحمر ، التى كان يقيم معها فى ذات قصرها فى (البورجو) !

ولكن اليكسندر السادس ، صمم ـ برغم ذلك ، وبرغم معارضة الكردينالات والملوك ـ على أن يصل الى غايته ، ويظفر لابنه بأغنى أبروشية فى أسبانيا . الا أنه كان من الضرورى ـ قبل كل شىء ـ أن يثبت شرعية مولد هذا الابن .. ولهذه الغاية ، عين البابا لجنة خاصة من أشد الكرادلة اخلاصا له ، كى يحققوا ويقرروا ظروف ميلاد سيزار بورجيا . وفى ضوء المعلومات التى طرحت أمام هذه اللجنة « الموقرة » ، كان عليها أن تقضى بأن « سيزار » قد ولد فى ظل زواج شرعى ، وأنه ابن « فانوتزا دى كاتانى » من زوج يدعى « دومينيكو دارينيانو » !

وفى ذات الوقت ، لم يحاول البابا أن ينكر أبناءه الآخرين غير الشرعيين . بل أنه فعل أكثر من ذلك ، **اذ أعلن أنه بدافع من الحب لفانوتزا ، وابنه منها ـ يقصد « جان » ـ الذى ولد بعد وفاة « ارينيانو »** ، قد تبنى سيزار ، واعتبره من أفراد عائلته ، ومنحه الحق فى أن يحمل لقب « بورجيا » !

وعلى الرغم من أن فريقا صغيراً من أقرب الموالين للبابا أبدوا استعدادهم لأن يعطوا أصواتهم فى مصلحة ابنه ، ومن أن ملكى اسبانيا سحبا اعتراضهما تحت تأثير الرشوة ـ الممثلة فى وعد البابا بمنح قلنسوة الكردينالية الى كاهن الاعتراف المقرب لدى الملكة ايزابيلا ـ فقد كان ثمة حزب خاص فى المجمع المقدس ، ظل يمانع ممانعة عنيفة فى ترشيح الابن غير الشرعى للبابا ، بزعامة الكردينال « ديللا روفيرى » .

واذ كان قداسته يتوقع معارضة شديدة وانقساما خطيرا ،

فقد بادر باستدعاء المجمع المقدس ، فى وقت كانت فيه حرارة الصيف قد بلغت أشدها ، ودفعت بغالبية الكرادلة الى الهرب من المدينة الى منازلهم الريفية.. فلم يلب الدعوة الا نصف الأعضاء .. ولكن غياب نصفهم الآخر ، لم يحل دون انعقاد المجمع فى ٢٠ سبتمبر ، حيث عرض عليه قرار البابا بتعيين اثنى عشر كردينالا ، من بينهم سيزار بورجيا واليكسندر فارنيزى !

ومن ثم ثار السخط والتذمر ، حتى لدى أكثر الكردلة تساهلا ، وأضعفهم شوكة .. وسرعان ما انطلقت عاصفة من التهديدات والاحتجاجات من جانب المعارضين بزعامة «ديللا روفيرى » .. ولأول مرة ـ منذ جلوس البابا على عرشه ـ وجد نفسه معرضا لهذا الموقف الخطير ، الذى كان ينذر بالانشقاق عليه.. فلم يتردد فى ان يظهر نفسه على حقيقتها ، واذا به ينتفض ـ كالوحش الثائر ـ من على عرشه ، وينهض أمام كرادلته مهولا ، مزمجرا ، مكشرا عن أنيابه ، اسود السحنة من شدة الغضب ، ويصرخ فى وجوههم بصوت مجلجل كالرعد القاصف قائلا لهم :

ـ أراكم غير موافقين على تعييناتنا .. فاسمعوا اذن : لسوف نعين ـ على الرغم منكم ـ ضعف هذا العدد ! .. **وعندئذ ستعلمون اى نوع من الرجال هو البابا المنحدر من بورجيا !**

تلك الكلمات المشئومة رن صداها فى كل جنبات أيطاليا ، وبها بدأت مأساة لم يكن يعلم غير الله عقباها .. فأمام هذا التهديد العنيف ، الرهيب ـ الذى قذف به البابا فى وجه كرادلته ـ وجد « جيليانو ديللا روفيرى » من الحكمة أن يسرع ـ للمرة الثانية ـ بالفرار من المدينة ، وأن يضع نفسه تحت حماية آل كولونيا ..فى حين أن منافسه

السابق ، « اسكانيو سفورزا » ، ظل باقيا فى الفاتيكان ، كرهينة للعلاقات المتصدعة بين البابا و (ميلان) .

***

واذ رأى «جيوفانى سفورزا» سلطة ابن عمه ـ المستشار العظيم ـ تنهار فجأة ، بدأ يقاسى هو الآخر من مرارة السهاد ، قلقا على مستقبله ، وقد وجد نفسه واقعا بين اصهاره ـ آل بورجيا ـ واقربائه فى ميلان .. حتى اذا اشتدت عليه وطأة الحيرة ، لم يعد قادرا على أن يخفى مخاوفه ؛ فكتب الى « لودفيكو سفورزا » قائلا له : **« يامولاى ، اننى ـ وقد وجدتنى فى هذا الموقف العسير ـ لأفضل أن آكل من العشب الذى تحت قدمى عن أن أستمر فى مثل هذه المصاهرة » !**

وما كان من المستغرب ـ والأمر كذلك ـ أن يستشعر « جيوفانى» شوقا عظيما نحو الهواء النقى فى وطنه العزيز ، على شواطىء الأدرياتيك ، لاسيما أن الوباء ـ الذى جلبته حرارة الصيف الى روما ـ كان عذرا قويا له كى يرحل عن المدينة ، تاركا خلفه زوجته الصغيرة .

ولما كانت وظيفة «جيوفانى» الوحيدة لدى «لوكريشيا» ، هى أن يظهر بجانبها فى المناسبات العامة ، فقد كان الأثر الغريزى لديها ـ اذ رأته قد اختفى ـ **أن ساورها الأمل فى أن يبادر أبوها الى فسخ زواجه منها ، بنفس السهولة التى مزق بها عقود خطابها السابقين !**

الا أنها ـ لدهشتها ـ وجدت أن رحيل جيوفانى قد سبب لأبيها قلقا عظيما ، واغضبه وحاشيته على السواء . وسريعا ما انعقد مجلس التحقيق فى كيفية افلاح زوج ابنة

البابا فى الأفلات من شبكة العيون المترصدة له ، والفرار من الفاتيكان !

وقبل أن تفتح لوكريشيا عينيها على الحقيقة المؤلمة لزواجها . كان الرسل قد انطلقوا فى أثر العريس المتمرد ، كى يقنعوه ـ بالوعد ، أو بالوعيد ـ بأن يعود ! .. بيد ان « جيوفانى » ظل ـ طيلة الخريف ـ غير عابىء بهذه الجهود .. ولم يعد الا فى الربيع تحت ضغط اولاد عمه عليه ـ فى ميلان ـ الذين كانوا قد تفاهموا مع « البابا » ، وكانوا غير راغبين فى ان يناصبوه خصومة صريحة !

الفصل السابع

• فى تلك الاثناء ، كان « شارل » الثامن ـ ملك فرنسا ـ لا ينى عن تدبير الامور لتحقيق المطامع الواسعة التى كانت تراوده .. وزاد هذه المطامع ذكاء ، ان زمام الامور بدأ يفلت من يدى البابا «اليكسندر» السادس ، وذهبت جهوده سدى **فى حفظ توازن القوى بين امارات ايطاليا ، وفى ايقاف غزوات بعضهم على بعض** .. وضاعف من غيظ ملك فرنسا وعناده ، ان الايطاليين راحوا يتهكمون عليه ، ويسخرون من عينيه المتنفختين ، وساقيه المعوجتين ، وشفتيه المتدليتين ، ولسانه المتلعثم ..

وكان رده على كل هذا ، ان اعلنت فرنسا ـ فى شهر يناير من سنة ١٤٩٤ ـ حقها فى تاج (نابولى) ..**وكانت هذه هى الخطوة الاولى ، فى السياسة التى رسمها « شارل » للاستيلاء على الولايات الايطالية ، تمهيدا لانشاء امبراطورية له فى حوض البحر الابيض المتوسط** .. لاسيما بعد أن عزز

حدود بلاده ، وسالم انجلترا ، وتنازل للامبراطور مكسميليان عن جزء من ميراث (برجانديا) ، واطمأن الى حياد اسبانيا بأن تخلى لها عن منطقة كانت مثار نزاع بينهما ..

وفى الوقت الذى اسفرت فيه فرنسا عن نواياها ، وصلت الى روما بعثة من الملك شارل الثامن ، تطلب الى البابا تنصيب الملك الفرنسى — وورثته من بعده — على عرش نابولى .. ومع ان البابا بورجيا غمر البعثة بكل الوان الحفاوة والتودد ، الا انه لم يدل باجابة شافية .. والواقع انه كان حائرا ، اذ ان فرنسا كانت قد عزلت ملك (نابولى) عن اصدقائه وعن ابناء عمومته ، امراء آراجون .. كانت المكائد الفرنسية — فى الوقت ذاته — قد وحدت بين الد خصمين لبورجيا : الكردينال ديللا روفيرى ، والكردينال سفورزا .. فكان على البابا أن يحارب فى اكثر من جبهة ، اذا هو رفض ، وكان عليه ان يمهد بنفسه لسيطرة فرنسا على ايطاليا ، وعليه ، اذا هو قبل !

وفى تلك اللحظات الدقيقة ، توفى « فيرانت » ، ملك نابولى .. **وازاء ماتبع ذلك من تنصيب ولى عهده « الفونسو » خليفة له ، اضطر البابا الى ان يكشف اوراقه ، وان يناصر آل آراجون ضد فرنسا ..** وعمد — فى الوقت ذاته — الى اكتساب آل سفورزا الى صفه ، اذ أقنع « جيوفانى سفورزا » — أخيرا — بأن يعود الى زوجته — فى روما — قاطعا على نفسه العهود بأن يمكنه من مباشرة حقوقه الزوجية ، فلا يظل مجرد « زوج صورى » !

***

وكان امرا قاسيا — بالنسبة لجيوفانى — ان يستأنف علاقاته بأسرة ذات ود مع آل آراجون ، خصوم اسرته ..

لاسيما ان «جوفريه بورجيا» كان فى طريقه ـ فى تلك الاثناء ـ الى (نابولى) ، ليزف الى اميرة من اميراتها ، كانت تكبره بخمس سنوات .. وكان يصحبه ـ كمبعوث بابوى ـ ابن عمه كردينال مونتريال ، حاملا معه سيفا مصقولا ، كى يقلده لألفونسو ، اذ ينادى به وارثا شرعيا لتاج نابولى ..

ولعل من المفارقات المؤلمة بالنسبة الى « جيوفانى سفورزا » ، **أن أول واجب رسمى كلف به ـ بعد عودته الى روما ـ هو أن يرافق مبعوثى (نابولى) عند وفودهم الى المدينة !**

ومع أن « لوكريشيا » تلقت عودة زوجها بمنتهى عدم المبالاة ، الا انها كانت مطيعة كل الطاعة لأوامر أبيها فى أن تلعب دور الزوجة المخلصة المحبة . وبرغم أنها ـ بعد ذلك بثلاث سنوات ـ وقفت مع ابيها ينكران وجود **«هذا الزواج العقيم »** على اى وجه ، فان الأسابيع الأولى من شهر العسل ـ الذى جاء متأخرا ـ شهدت لحظات ، نجحت فيها فى أن تلمس الوتر الحساس فى طبيعة زوجها الجافة !

واقبل الصيف مبكرا الى (روما) ، فى ذلك العام . ومع التراب والذباب ، عاد الطاعون يهدد المدينة مرة أخرى ، وفر الأغنياء الى منازلهم الريفية .. ولكن الحاشية البابوية ظلت الى جانب البابا ، الذى قرر أن يبقى فى الفاتيكان ، كى يرقب أعمال تعزيز استحكامات (سان أنجيلو) ، ويتابع سير العمليات الحربية مع قادة جيش نابولى .. اذ كانت جيوش فرنسا قد بدات الزحف عبر الالب .

وفى هذه الظروف الحرجة ، وجد الكرادلة المعارضون فرصتهم السانحة ، فراحوا يتسللون من (روما) ، واحدا بعد الآخر . .اذ فر «ديللا روفيرى» الى فرنسا ، كى يساهم فى غزو بلاده !.. **بينما أبدى «اسكانيو سفورزا» مزيدا من**

الحرص والدهاء ، فلم يذهب الى ابعد من حصن كولونا ، فى (مارينو) ، حيث جثم يرقب تطور الاحداث ..

وصارت (روما) تجيش – كخلية النحل – بالجواسيس . وقدانحاز آل كولونيا ، وآل سافيليس ، الىجانب فرنسا . ورددت كل جنبات المدينة على طول الطريق من (الكابيتول) الى (الأفنتين) صيحة الانتصار للدولة الفازية ، اذ باتت كل الظروف تؤكد ذلك .. **فقرر البابا أن ترحل ابنته الى ولاية زوجها ، وأن تصحبها ((جوليا)) ..**

وقد جاء هذا القرار مبعث بهجة .. لا بالنسبة الى «جيوفانى سفورزا» وحده ، وانما بالنسبة الى «لوكريشميا» ذاتها كذلك .. اذ كان الضيق قد بدأ يتملكها ، واشتد بها الضجر من طول احتباسها فى قصرها ، خوفا من عدوى الوباء ، ومن الشغب الذى أثارته انباء الحرب ، والفوضى التى دبت فى المدينة .. **ومن أمر آخر بدا يلقى ظله على حياتها ، وبدأت تشعر به شعورا متزايدا ، هو امتداد الألسنة الى منشأها الشائن باعتبارها الأبنة غير الشرعية للبابا ! ..** وقد حدث فى الأيام الأخيرة أن خرجت – مرة ، أو مرتين – الى الشرفة مع جوليا ، كى تستنشقا نسيم المساء ، فتجمعت شرذمة من الأوباش والمتشردين ، وراحوا يشيرون اليهما ، ويقذفونهما بأقبح الشتائم وأوقح الأهانات !

***

وفى منتهى الصلف والكبرياء ، اتخذ سيد (بيزارو) – جيوفانى سفورزا – مكانه على رأس الموكب الفاخر الذى تجمع فى ميدان (سان بيتر) – فى ٣ مايو سنة ١٤٩٤ – متأهبا للرحلة عبر جبال (الأبينايين) . **وكان ((جيوفانى)) أكثر أفراد الموكب فرحا وانشراحا ، اذ جاءت اللحظة التي**

((سيزار بورجيا)) .. عن لوحة رسمها له الفنان الايطالى الأشهر ((ليوناردو دافنشى)) ، لاتزال محفوظة فى متحف الفن بتورين.. ويلاحظ انها تمثل ((سيزار)) وهو شاب .. وقد رسم له ((دافنشى)) صورا أخرى ، يجد القارىء احداها فى ص ١٣١

طالما انتظرها كى يغادر ذلك الجو الخانق فى روما.. وقد بلغ من فرحه وانشراحه ، أنه لم يبد أى اعتراض على بطانة زوجته .. وكانت تضم عددا كبيرا من القهرمانات والوصيفات والصديقات والرفيقات ، بينهن « أدريانا » و « جوليا » .. وقد كان من المفروض أن يعشن جميعا على نفقته .

ولكم تملك جيوفانى الفخار والزهو ، حين راح الموكب يشق طريقه الى وطنه . اذ كانت المدائن تحييه ـ مدينة بعد مدينة ـ بالأبواق واقواس النصر ، وقد رفرفت الأعلام والبيارق ، وخرج أعظم الدوقات والأمراء لاستقباله عند أبواب عواصمهم .

بيد ان مفاجأة مشئومة ، كانت تجثم للموكب ، فى (بيزارو) .. فما ان وصلوا الى مشارف المدينة ، حتى هبت من (الأدرياتيك) ريح عنيفة عاتية ، سرعان ما حطمت الزينات العظيمة التى اعدها الشعب لهم .. واذا بأقواس النصر تسقط فى أوحال الطريق ، والزهور والرايات والبيارق تغمرها سيول الأمطار ، والشعراء ـ الذين سهروا الليالى فى اعداد قصائد المديح ـ يضطرون الى القائها وهم ينتفضون من البلل ، تحت رفارف أفنية القصر ، والكونتة الجديدة التى كان رعاياها ينتظرون وصولها بشوق عظيم ـ لوكريشيا ـ تبدو فى حال يرثى لها ، وقد تلفعت بازار طويل ، وأسرعت مهرولة ـ فى الشوارع ـ وليس لها من هم سوى أن تجفف ملابسها وأن تأوى الى فراش دافىء تلتقط فيه أنفاسها !

ولكن هذه الحملة الطبيعية انجابت ، فى الصباح ألتالى .. فأشرقت الشمس عاكسة ضياءها على البحر والجبل ، وبدت شوارع المدينة ـ وقد غسلتها مياه الأمطار ـ لامعة تحت سماء الصيف الساطعة . واستردت كونتة (بيزارو) الصغيرة ـ التى لم يسبق لها أن رحلت من روما الى أبعد من (اوستيا) ـ مرحها ، وصفاء روحها ، وزال اعياء الرحلة عنها . وتراءت لها (بيزارو) ـ خلال نوافذ قصر «سفورزا» ـ مدينة بديعة بهيجة ، تموج بالراقصين ذوى الأقنعة التنكرية والأردية المحبوكة ، وقد خرجت جموع الشعب كى تحتفل بقدوم اميرتهم الجديدة الجميلة ، وانطلق المهرجون يهزلون ويهللون . والمتفرجون يصفقون ويلقون أوراق « الكرتفال » ـ المتعددة الألوان ـ على الرائحات والغاديات من الغانيات والحسان .. والقوارب الرشيقة ـ الآتية من كل صوب ـ تتهادى بشراعها الذهبية نحو الميناء ، مختالة بأحمالها العجيبة ، المجلوبة من كل انحاء الدنيا ، كى تلقى رحلها فى ذلك المكان .

وقد سعدت لوكريشيا بهذه المباهج التى استقبلت بها فى (بيزارو) ، فراحت تؤدى واجباتها فى بساطة وتواضع عجيبين .. **حتى أن كل من قابلها وقع فى فتنة سحرها ، اذ رأى فى ابتسامتها العذبة العابثة ، أثرا العطف البابوى !**

وتقهقرت غيوم الحرب ـ فى تلك الاثناء ـ وتوارت خلف جبال الأبينايين . فلم تعد لوكريشيا ـ فى غمار سعادتها ، فى تلك الأسابيع الأولى ـ تطيل التفكير فى ابيها او اخيها . أما زوجها ، فقدأسكرته فرحة الاستئثار بعروسه الفاتنة ، فأنسته وطأة التزاماته الثقيلة ، باعتباره زوجا لابنة البابا !

الفصل الثامن

• بين الملفات المصونة فى دار المحفوظات بالفاتيكان ، ملف ضم مجموعة من الخطابات التى كتبت فى سنة ١٤٩٤ وما بعدها .. ومن خلال سطور هذه الخطابات ، تتكشف لنا صورة البابا ، سليل آل بورجيا ، فى اوثق صلاته وعلاقاته الخاصة .. **فاذا هو أب عطوف ، ولكنه مستبد جبار .. وعشيق مدنف ، ولكنه مسرف فى نزواته وتقلباته !**

واذ ندرس هذه الرسائل ، على ضوء الزمن والظروف ، ننفذ الى جانب آخر من شخصية « الكسندر » العجيبة المزدوجة .. فاذا نحن ازاء رجل استطاع — كسياسى وحاكم — ان يدير دفة البابوية بنجاح ، فى فترة من ادق فترات تاريخها ..

وبينما كانت ايطاليا تتهاوى وتتمزق ، استطاع هو ان يصمد فى مقاومته لمطالب فرنسا ، ولكنه كان — فى الوقت ذاته — رجلا مفرط الانغماس فى شهواته ، الى درجة انه لم يكد ينقضى على رحيل ابنته وعشيقته شهر واحد ، حتى ارسل يلح فى عودتهما .. **فقد كانت «لوكريشيا» تستأثر — فى تلك الايام — بكل أفكاره .. وكان مجرد سماعه بوعكة اصابتها ، كفيلا بأن يدفعه الى ان يكتب اليها خطابا تسرى بين سطوره رعدة الخوف ، وهذيان الحمى !**

وزاده هياجا ، ان علم ان اهل « جوليا » — عشيقته — قد استدعوها لكى تكون الى جانب فراش اخيها الاكبر ، فى لحظات موته ، وقد جرؤت أن تغادر (بيزارو) دون أن تنتظر اذنا بذلك منه ، فاعتبر « لوكريشيا » مسئولة عن ذلك .

وكتب يقول لها : «أنه لمسلك فى منتهى القبح ، من أبنة يعوزها

الى هذا الحد احساس الحب نحو أبيها ، **حتى انها لا تبدى أية رغبة فى أن تعود اذ يدعوها اليه ، وأنما على العكس تعصاه وتغدر به دون مراعاة أى اعتبار .. » !**

وبدا نضوج «لوكريشيا» فى ردودها لأبيها .. فقد كانت تلاطفه ، وتسايره فى تفكيره . وان ظلت دائما حافظة لكرامتها .. تلك الكرامة التى كانت تنقصه وعشيقته ، عندما يكون الامر متعلقا بشهواتهما ومطامعهما ..

وكانت « جوليا » ـ من ناحيتها ـ تسايره على البعد ، وتحرص على ان تغذى فى العشيق ـ ابن الستين عاما ـ ما كان يسميه هو « شيطان شهوته » .. على ان بورجيا ـ الذى كان من اذكى رجال عصره ـ لم يدع بريق عباراتها يزيغ بصره طويلا ، فلم يلبث ان فطن الى ان رسائلها المعسولة كانت رسل منفعة اكثرمنها رسل عاطفة صحيحة ، صادقة . ومما زاده غضبا ، انها ـ بعد وفاة اخيها «انجيلو فارنيزى» ـ آثرت ان تبقى مع «ادريانا» فى (كابو ديمونتى) ، ضاربة عرض الحائط بأوامر البابا اليها بالعودة الى (روما) ..

وكأنما راحت الظروف تتألب ضده من كل جانب .. **فاذا زوج « جوليا » ـ الذى طالما تجاهلته وسكت على تجاهلها ـ يتمسك فجأة بحقوقه الزوجية ..** واذا اخوها ـ الكردينال فارنيزى ـ الذى يدين بذات وظيفته ومركزه الى علاقة اخته بالبابا ، قد انضم هو الآخر الى صف الزوج ، وعضد موقفه .. حتى « ادريانا » ، التى اغمضت عينيها عن عرض ولدها وهو ينتهك ، اذا بضميرها يستيقظ فجأة . فتبدى استعدادا لأن تعصى رغبات البابا ، فى سبيل حقوق ابنها !

ولم يجد «البابا» منفثا لغضبه وحنقه من مسلك عشيقته

القـادر ، الا بأن يصب اللوم على ابنته ! .. ثم لم يلبث ان اصدر امره الى «جيوفاني سفورزا» ـ زوجها ـ بأن يتولى قيادة احدى الفرق ، فى جيش نابولى .. ويبدو ان البابا ـ على سعة عقله ـ لم يكن يدرك مشكلات زوج ابنته ، فى تلك الفترة . فلم يكد يشعر بتردده فى الصدوع بالامر ، **حتى كتب اليه يعيره بالجبن من الاشتراك فى القتال ، غير مقدر ان الشاب كان محرجا بين ولائه لحميه وولائه لأبناء عمه آل ((سفورزا)) .**

وعندما اضطر « جيوفانى » الى الخروج عن تردده ، خرج .. ولكن ، ليقوم بدور جاسوس لأهله . وليدبر الدسائس مع «لودفيكو سفورزا» والمؤامرات ، برغم الخوف الذى كان يتملكه . من ان يفطن البابا الى اتصالاته الخفية ! .. واذا كانت « لوكريشيا » قد اشتبهت فى شىء من مسلك زوجها ، فانها لم تشى الى ابيها بكلمة واحدة ـ فى خطاباتها ـ **بل ظلت دائما كونتة ((بيزارو)) ، المحافظة على شرف زوجها ، القائمة بادارة شؤون ولايته ـ اثناء غيابه فى ميلان ـ فى كفاءة تفوق سنها !**

وبينما كانت تقضى وقتها فى سياسة شؤون (بيزارو) ، وفى اعداد الهدايا لجنود زوجها ، راحت تسائل نفسها فى عجب : لماذا كان ابوها شديد اللهفة على زواجها من احد افراد اسرة « سفورزا » ، وقد أبدت لها الاحداث ان هذا الزوج غير ذى قيمة بين الحكام الكبار !

***

وفى ٣ سبتمبر سنة ١٤٩٤ ، بدأ تدفق الجيوش الفرنسية عبر جبال الالب .. ولم تظهر خسة الامراء الايطاليين يوما ، ولا خيانة الشعب الايطالى ، كما ظهرت فى ذلك الظرف

العصيب .. فلم تكد تنقضى أسابيع على الهجوم ، حتى كانت رايات التسليم البيضاء ترتفع فى كل مكان من جبال الالب الى جبال (الأبيناين) .

وما كاد الملك الفرنسى يصل الى (بياسنزا) ، حتى بلغته الانباء بأن دوق (ميلان) قد مات ـ وراحت شائعات بأنه اغتيل اغتيالا ـ **وجمع «لودفيكو سفورزا» اعوانه ، فانتخبوه بالاجماع خليفة لابن عمه .. واحتمى بالفرنسيين كى يسندوا سلطانه !**

ومن (بياسنزا) ، اجتازت الجيوش الفرنسية ممر (سيزا) الى البحر الابيض المتوسط ، فاذا « بييرو دى ميديتشى » يخف اليها ـ فى جبال (كارارا) ـ يعلن تخليه عن حلفائه فى نابولى ، ويعرض على الفزاة مفاتيح استحكامات (توسكانيا) ..

وكان اكثر الجميع خسة ونذالة ، هو « فيرجينيو اورسينى » ـ قائد جيش نابولى ـ الذى لم ينس ، وهو يحتضر ، أن يوصى اولاده بأن يسلموا قلاعهم للعدو ، نكاية فى البابا .. **ولكن اليكسندر السادس لم يتحول عن صموده فى وجه الفرنسيين ، حتى حين وصلت سفنهم الى مصب (التيبر) ، وراحت تهدد (روما) ..**

وكم رفعه موقفه هذا ، فى عينى ابنته «لوكريشيا» ، الى مصاف الابطال ! .. ومع ان (بيزارو) كانت محصنة بجبالها الشاهقة ، الا ان اصداء القتال ـ فى الارجاء الاخرى من ايطاليا ـ كانت تؤرق ليالى لوكريشيا .. **واذا كان قلبها قد خفق يوما بشىء من الحب لزوجها ، فان هذا الوجيب لم يلبث ان اختنق برائحة الخيانة التى غرق فيها زوجها !** .. فقد كانت ـ كأبيها ـ تعتبر نفسها اسبانية ، وكانت ترى فى استسلام الايطاليين لفرنسا نذالة ومنافاة للشرف !

ولكن احدا من المؤرخين والمحللين النفسيين ، لم يستطع ان يوفق بين ما ابداه اليكسندر السادس من شجاعة وشهامة وازدراء بالخطر – فى عالم الحرب والسياسة – وبين ما ابداه من ضعف فى عالم الهوى والغرام .. فقد كان – فى عنفوان المحنة – يكاد يفقد عقله شوقا الى عشيقته « جوليا » ، التى ظلت فى (كابو ديمونتى) .. **بل انه فقد – فعلا – كل مظاهر عزة النفس والاتزان ، وراح يترنح تحت رحمة شهوته الشائنة ، ويلوح مهددا متوعدا جوليا ، وحماتها ، وزوجها ، وشقيقها ، بعقوبة الحرمان الدينى !..**
وقد أهاجت هائجه غيرته الهستيرية من « أورسينو أورسينى » ذى العين الواحدة ، فكتب يقول لها : « أيتها الغادرة . الناكرة الجميل ، ماذا تعنين اذ تقولين انك لن تعودى الى روما الا أن يأذن بذلك زوجك ؟.. اننا وقد علمنا الآن لؤم طباعك وطباع الذين ينصحونك ، **لن يمكننا أن نفرض الا أنك لا تريدين أن تذهبى الى (بسانيللو) الا كى تستعيدى علاقاتك مع ذلك التيس الذى هو زوجك .. »** !
ويبدو أن هذا الخطاب الشائن ، قد كتب باللغة التى كانت جوليا تفهمها . اذ أنها لم تكد تقرأه حتى أسرعت عائدة الى روما .. وكانت هى وأبوها – على السواء – يجهلان أن الملك الفرنسى قد وصل – حينذاك – بالفعل الى (سيانا) ، وأن الطرق لم تعد بعد آمنة .. فاذا بها وحاشيتها يقعون فى ايدى الغزاة ..
وكانت « ايزابللا ديسته » – مركيزة مانتوا – هى أول من سمع بوقوع ذلك الحادث ، الذى اعتبر اهانة عظمى للبابا ، وتناقله الناس فى تشف عجيب وبهجة بالغة .. فقد تلقت المركيزة من احد اتباعها خطابا ، قال فيه : « حدث أمس الأول ، أن كانت « مادونا جوليا » ، و «مادالما » أدريانا ،

راحلتين من قلعة (كابودى مونتى) ، متجهتين الى (فيتربو) . فما صارتا على بعد ميل واحد من هذا المكان ، حتى قابلتهما فصيلة من الفرسان الفرنسيين وأسرتهما ، ثم قادتهما الى مونتى فياسكونى » .

وزاد من تشفى الايطاليين ، ان عرف أن البابا ـ فى غمرة فزعه وجزعه على سلامة محبوبته « جوليا » ـ أرسل فى الحال كبير حراسه الى حصن (كولونا) فى ميلان ، **كى يناشد الكردينال سفورزا ـ باسم صداقتهما القديمة ـ أن يبذل كل جهده فى العمل على أطلاق سراحها ..**

ولقد كانت الصورة التى أدى بها المستشار هذه المهمة ، هى البادرة الأولى من الخيانة المزدوجة التى لعب دورها ـ بعد ذلك ـ آل سفورزا .

أما الشخص الوحيد الذى يبدو أنه تصرف بشرف وشهامة فى ذلك الأمر ، فهو ملك فرنسا : اذ أنه كان قد اتبع نصيحة «دبللا روفيرى» وأخذ « جوليا » رهينة يقسر بها البابا على قبول شروطه .. ولكنه لم يلبث ان أطلق سراحها نظير مبلغ بسيط هو ثلاثة آلاف دوقية .. بل انه فضلا عن ذلك أصدر امره بأن تعامل بمنتهى الرفق والأكرام ، طوال فترة بقائها فى المعسكر الفرنسى .. حتى اذا حان ميعاد رحيلها ، قامت فرقة من اربعمائة فارس ـ من فرسان فرنسا ـ بمرافقتها حتى أبواب روما ، **حيث كان هنالك فى استقبالها رئيس الحرس البابوى ، وقد استصحبها على الفور الى جناح البابا فى الفاتيكان . فخرج قداسته للقائها ،** وقد تلفع بعباءة من المخمل الأسود الموشى بخيوط الذهب ، وتمنطق ـ على الطريقة الأسبانية ـ بحزام جميل يتدلى منه السيف والخنجر ، وأمال على رأسه قلنسوة فاخرة من القطيفة اللطيفة ، فبدا فى صورة فارس أسبانى !

واذ اطمأن البابا الى وجود « جوليا » بجانبه ، انبثق فى داخله ينبوع حيويته من جديد .. وارتد الى شخصيته المزدوجة ما كان لها من قوة ، وما كان فيها من فطنة وذكاء ودهاء ،وعاودته شخصية الرجل السياسى المحنك ذى النظر البعيد ، والارادة التى من حديد ..

بيد ان هذا كله ما كان ليجدى فى اصلاح الموقف .. ففى منتصف ديسمبر ، هاجمت الجيوش الفرنسية (سيفينا فيشيا) . وما ان بلغت منحدرات (مونتى ماريو) ، حتى اضطر البابا الى الانسحاب الى (سان أنجيلو) .. وفى الساعات الأخيرة من اول يناير سنة ١٤٩٥ ، دخل ملك فرنسا الى روما دخول المنتصر .

الفصل التاسع

• **وكانت** لوكريشيا فى ذلك الوقت ـ وهى منعزلة فى معقلها القائم على الأدرياتيك ـ تسمع أخبار الابتهاج الذى كان جيرانها فى رومانيا ، يقابلون به أنباء انتصارات الفرنسيين ، كى يرفعوا عن كاهلهم نير البابوية .. وقد بدأ الناس ـ فى ذات مجلس لوكريشيا ـ يتحدثون عن مجمع قيل انه شكل فى روما لعزل البابا .. **بل ان زوجها ذاته ـ كما اوحى اليها قلبها ـ كان خليقا بأن يقتفى اثر جيرانه ، لاسيما ان مكائده ـ التى كان يدبرها مع أولاد عمه من آل سفورزا ـ لم تعد سرا من الأسرار** .. ولكن خوفه من العاقبة ، وقلقه على مركزه المالى ، كانا يردعانه عن الاقدام السافر !

وماكاد البابا يعود الى روما ـ فى منتصف نوفمبر ـ حتى

كتب الى «لوكريشيا» يبثها شوقه الطاغى ، مناشـدا اياها أن تخف اليه ، لتكون الى جانبه فى ذلك الظرف العصيب .. ولكن الظروف شاءت ، الا ان يكون الفرنسيون قد اجتازوا فعلا ممر (سـيزا) ــ فى الوقت الذى تلقت فيه لوكريشيا الرسـالة ــ واحتلت قواتهم حصون (الأبينايين) ، فلم يعد امامها مفر من ان تقضى الشتاء فى صحبة زوج كان شعورها يتزايد يوما بعد يوم أنه أجنبى وغريب عنها !

وكان كل رسـول يفد من روما ، يأتى اليها بأنباء أشـد خطورة : فقد احتل الفرنسـيون كل أنحاء المدينة ، وأصبح أبوها أسيرا فعلا فى (سان أنجيلو) . وقد أملى ملك فرنسا شروطه مقابل أن يحفظ للبابا كرامته ، **وكان أهمها تسـليم الأمير التركى «نجم الدين» ، وكردينال فالنسيا ــ « سيزار بورجيا » ــ كرهينتين حربيتين ، ومنح فرنسـا ممرا حرا بين المقاطعات البابوية !**

ولقد ظـل البـابا يمانع فى قبول هـذه الشروط مـدة أسبوعين كاملين ، حتى صبت المدافع الفرنسية قذائفها ، فصدعت جدران (سان أنجيلو) .. وحينئذ فقط ، تجاوبت فى أنحاء ايطاليا كلها الأنباء ، بأن صاحب القداسـة البابوية « اليكسندر » السادس ، وصاحب الجلالة المسيحية الملك « شارل » الثامن ، قد وصلا الى اتفاق .

ولقد استبدت بلوكريشيا الشكوك والمخاوف ــ أول الأمر ــ على ابيها وأخيها . . الا أن الحوادث قد تكشفت بعد ذلك ، عن أن **البابا ــ على الرغم مما خسر من سـلطاته الزمنية ــ قد انتصر فى النهاية من الناحية الروحية ، فلم يعد الناس يتحدثون عن مجمع سـينعقد لعزله** ، اذ راوا ملك فرنسا ــ أمام كل الهيأة المجتمعة من كرادلة وسفراء وأمراء ــ يقف

أمام العرش البابوى ، **ثم يسجد فى خضوع وتواضع عند قدمى البابا بورجيا ! !**

فلما آن أوان تحرك الملك على رأس جيوشه من روما . لم يكن ثمة أعذب ، ولا أقوى مودة . ولا أشد حرارة من عبارات البابا وهو يقوم بتوديعه . ولم يكن ثمة من هو أكثر بهجة ووجاهة من سيزار بورجيا ، وهو يقوم بمرافقته .. فى الظاهر باعتباره نائبا بابويا ، وفى واقع الأمر باعتباره اسيرا حربيا .

الا أن أولئك الفرنسيين ـ الذين نظروا ساخرين الى العربات السبع عشرة ، المغطاة بالمخمل . والمحلاة بالزخرف الجميل ، والمحملة بمعدات الرحيل الخاصة بالكردينال الشاب ـ كفوا عن سخريتهم ، حين رأوا « سيزار » فى الليلة الأولى من رحلتهم ، يطرح عنه ثوب كهنوته القرمزى ، ويندمج فى مباريات المبارزة مع أشجع فرسانهم .. **ثم حين جاءت المفاجأة الثانية ، فى الليلة التالية ، اذ لم يكد الجيش يصل الى (فيلليترى) ، حتى أستيقظ الملك ـ قبيل الفجر ـ على نبأ اختفاء الكردينال !**

فقد هرب سيزار من معسكر الفرنسيين ، متنكرا فى زى حمال ، وقطع شوارع المدينة على قدميه ، ثم اتجه نحو حانة صغيرة ـ منزوية خارج الأسوار ـ حيث كان ثمة خادم ينتظر ، ومعه جواد .. وفى الليلة التالية ، كان قد عاد الى روما ، حيث ظل هناك مختفيا عن الأنظار .

***

واذ تحقق ملك فرنسا من أنه أنما كان ضحية لخداع البابا وتغريره ، أصدر امره بسرعة التحقيق فى الكيفية التى تمكن بها « سيزار » من الهرب . وقد كانت دهشة

الفرنسيين عظيمة ، ومرارتهم بالغة ، حينما اتضح لهم ـ اذ ارادوا تفتيش أمتعة الهارب ـ **أن العربات السبع عشرة كانت خالية تماما من أى متاع !..** وما كان الاحتجاج ليجدى نفعا ، فما ان أرسل الملك مبعوثيه الى البابا معلنا استياءه من نقض الاتفاق ، ومهددا بالثار اذا لم يعد سيزار ، حتى ابدى البابا دهشته ، ورد بأنه لم يكن على علم البتة بهرب ابنه ، أو بمكان وجوده ! .. بيد ان مناورات « البابا » لم تخدع الفرنسيين .. فراحوا يعدون العدة للثأر .

ولم تمض ايام قليلة ، حتى كان أحد الرهبان يغذ السير عبر (الأبينايين) ، متجها نحو (بيزارو) ، حيث أبلغ لوكريشيا أنباء هرب أخيها .. وحينئذ ، ولأول مرة ـ منذ أسابيع عديدة ـ تجاوبت بين جدران قصرها رنة ضحكها ..لأنه لم يكن ثمة ما يطرب له آل بورجيا ، أكثر من طربهم لسماع أخبار الغدر والخداع .. ولأنها ـ بالرغم مما كان أبوها قد كتبه فى خطاباته الرسمية المعرضة لعيون الجواسيس الفرنسيين ـ **عرفت أن الكبرياء الأسبانية ، متحالفة مع المكر الأسبانى قد انتصرا ، اذ أفلحا فى التخلص من الفخاخ التى نصبها الأعداء !**

وقدر لهرب « سيزار » من (فيلليترى) ، ان يكون أول حلقة فى سلسلة انهزامات الفرنسيين ..

أما الحلقة الثانية ، فقد جاءت حين تجاوبت الانباء ، بأن الأسير الثانى ، وهو الأمير الشرقى نجم الدين ـ الذى كانت حياته تساوى قدرا جسيما من المال ـ قد توفى على أثر مرض قيل أنه انتابه عقب خروجه مباشرة من روما .. وترددت الشائعات ـ فى ذات الوقت ـ بأن موته قد حدث نتيجة السم البطىء المفعول ، الذى أشتهر به ـ بعد ذلك ـ آل بورجيا !

الا أن الضربة الثالثة ، كانت أشد من سابقتيها أثرا وخطرا على ملك فرنسا ورجال جيشه جميعا .. الا وهى : **فتنة نساء أيطاليا !..** اذ أن الحياة الداعرة التى كان النبلاء الأيطاليون يحيونها ، وانحلال أخلاقهم ، وتبذل زوجاتهم .. كل هذا ادى الى افساد الملك وحاشيته على السواء .. ومع أن أميرات «آراجون» الجميلات ، الخليعات ، كن قد فررن من (نابولى) ، الا أن رفيقات مباهجهن وطربهن ، بقين من بعدهن ، **فشغلن الملك الشاب عن واجباته ، وأعمين بصره عن مكائد الخيانة والغدر التى كانت تحاك وراء ظهره !**

وبين احضان بساتين البرتقال فى (بايا) ـ بريف (نابولى) ـ وعند حنايا الطرقات الضيقة ، وبين جدران المواخير القذرة الموبوءة فى الميناء ، الطافحة بكل الرذائل والنقائص والامراض ، راح أبدع جيوش أوروبا ـ الجيش الفرنسى ـ يترنح وينهار ، تحت معول الدعارة والفجور !

وبينما كان الملك وحاشيته وجيشه منغمسين فى مباهج (نابولى) ، راح البابا يحشد حشوده ، لاعادة بناء توازن القوى فى اوربا .. ووجه جهوده لتكوين حلف يضم أسبانيا وميلان وفينسيا ، وعلى رأسه البابوية ذاتها ! .. وما ان بلغت أنباء هذا الحلف مسامع الملك الفرنسى ، حتى قرر أن يسرع فى العودة الى فرنسا ، قبل أن يقطع عليه حلفاؤه السابقون خط الرجعة الى بلاده !

***

وما كانت تدابير السياسة لتلهى « رودريجو بورجيا » ـ أو « اليكسندر » السادس ـ عن حياته الخاصة .. فقد تناهى اليه ـ فى تلك الاثناء ـ **ان «لوكريشيا» كانت تعيسة**

ايما تعاسة فى حياتها الزوجية ، مشوقة ايما شوق الى ان تعود الى اهلها فى روما .. وكانت الطريقة الوحيدة لازاحة زوجها عن طريقها ، هى السعى الى تعيينه فى منصب يبعده عنها .. واذ كانت جمهورية البندقية (فينيسيا) الفنية ، قد غدت حليفة للبابا ، **فقد بات من حق البابا على اولى الأمر فيها – فى نظره هو ، على الأقل – أن يوظفوا لديهم من يرشحه من أقاربه ، ولو كان اشد الناس عجزا وقصورا !**

ولكن الأمر لم يكن بالسهولة التى تصورها ، فقد ابدى دوق (فينسيا) عنادا صلبا ، فى أعطاء وظيفة لصهر البابا الخامل .. ولكن عناده ما لبث ان لان – بعد عدة اشهر من المساومات – ونجح وسام « الوردة الذهبية » ، الذى أهداه « أليكسندر » الى الدوق ، فيما لم ينجح فيه الرسل ، فأصدر أمره بتعيين امير (بيزارو) ، ودوق (جانديا) معا ، ضابطين فى جيش الجمهورية .

وكان خليقا بجيوفانى – وهو العاطل من كل ماكان يؤهله لمنصب ذى قيمة – ان يقنع بهذا الكسب . بيد انه لم يكد يعرف انه قد تقرر ان يظفر شقيق زوجته من منصبه بثلاثين ألف دوقية – وهى العملة الذهبية المعتمدة فى ذلك الحين – بينما لم يقدر له هو سوى اربعة آلاف فقط ، **حتى ثار ثائره ، واعتبر هذه التفرقة أهانة كبرى لطموحه وكبريائه على السواء** . وقد أصبح على زوجته الصبية – المتضايقة منه ومن حياتها معه – أن تستمع طول الوقت الى شكاواه التى لا آخر لها ولا انتهاء ، مما جعلها تعيش على الدوام فى جحيم لا يطاق !

وأخيرا ، صدر أمر البابا الى « جيوفانى » بأن يصحب « لوكريشيا » الى (اورفيتو) . الا أن حالة الطرق – وقد كانت في ذلك الحين ، ملتقي الجيوش المتلاحقة أو المتلاحمة

ـ أعطت الزوج تبريرا كافيا لأن يرفض أمر البابا ، زاعما أنه لا يستطيع أن يعرض زوجته ـ فى مثل تلك الظروف ـ لمخاطر السفر عبر (الأبينانين) .

ولكن البابا كان ـ كعادته ـ لا يكترث لأى اعتبار من الاعتبارات ، فى سبيل تنفيذ رغبته والاذعان لارادته . وبرغم ان الجيوش الفرنسية كانت تقترب سريعا ، حتى انها أجبرته أجبارا على أن يغادر (أورفيتو) الى (بيريجيا) . فقد وجد البابا ـ مع ذلك ـ متسعا من الوقت لأن يملى ـ فور وصوله ـ مكتوبا الى زوج أبنته ، يهدده فيه بعقوبة الحرمان الدينى ، اذا نكص عن مرافقة زوجته الى (بيريجيا) !

وهكذا حدث فى ١٣ يونيو سنة ١٤٩٥ ، أن غادرت لوكريشيا وزوجها ـ يحيط بهما ثمانون فارسا ـ المدينة التى جاءت اليها منذ عام واحد .. **ولكنها خلال هذا العام ، كانت قد كبرت وطفرت من طفلة انى امرأة .. وبهذا الوصف ، لم يكن من الممكن أن تجد فى (بيزارو) ما يحقق لها السعادة ، أو يثير ـ فى نفسها ـ عاطفة ..**

فان سعادتها ، وعاطفتها ، كانتا تتعلقان بالماضى .. ذلك الماضى الذى كانت عائدة اليه بشوق عظيم ، والذى عرفت انها لن تستطيع أن تهرب منه !

الفصل العاشر

● وكان الماضى ينتظر لوكريشيا فى (بيريجيا) .. كان ينتظرها فى صورة اب عاشق ، وأخ غيور ، وحاشية متملقة .. **وفى هذه الأسرة المجتمعة الشمل ، المتجاوبة العاطفة ، لم يكن ثمة مكان للزوج الذى لا يحبه أحد ، ولا يهتم بوجوده أحد !**

واذ كان « جيوفانى » يهيم حقا بزوجته ـ وان كان أسلوبه فى ذلك يبدو فاترا متزمتا ـ فقد تولته الدهشة الممزوجة بالحنق والاستياء ، من الأعجاب الذاهل الذى تبدى على «لوكريشيا» ، وهى تنصت الى اخيها «سيزار» ، اذ راح يحكى لها قصة هربه من (فيلليترى) ..ومن الطريقة العشقية الفريبة ، التى كان أخوها ـ ومعه أبوها ـ يسعيان بها الى أن يسترعيا انتباهها ، ويستثيرا طربها وأعجابها .

لقد كتب سفير (فيرارا) فى بعض خطاباته ، حين كانت « لوكريشيا » بعد طفلة : « أن البابا يحب أبنته حبا عنيفا جدا» .. **ولكن هذا الحب لم يتضح بكل عنفوانه كما اتضح الآن ، حين عادت فى كل بهاء سنيها الخمس عشرة ، كى تأخذ مكانها كعشيقة للفاتيكان .. ولقلب أبيها !**

كانت علاقة « لوكريشيا » بأبيها ـ فى الماضى ـ محوطة بالأبهام ، فى ظل وجود «جوليا» ؛ والتعقيد الذى تؤدى اليه تعاليم « أدريانا » . أما الآن ، فقد رأته ـ للمرة الأولى ـ بعين المرأة الناضجة ، دون ما حجاب ، ولا ظلال ، ولا افتعال .. ذلك الأب الساحر الجمال ، المتناقض الخصال ، وذلك المزيج العجيب التركيب من النعومة والصلابة ، ومن الليونة والاستبداد ، ومن الحب والحنان ، ومن التسلط والطغيان .. فى آن واحد !

فأين زوجها من هذه الطباع وهذه الأوضاع ، وقد كان من أولئك الأشخاص الذين يأخذون الحياة مأخذ الجد ، ولا يفتأون متمسكين بكبريائهم ، ناعين ـ على الدوام ـ سوء حظهم ، وتفوق أقرانهم بغير حق عليهم ، حتى لتغدو حياتهم سلسلة متصلة الحلقات من الغيظ والحنق والكدر والضيق .. **فما كان أوسع الفارق بين زوجها ـ وهذا شأنه ـ وبين أبيها الذى ظل محتفظا بصفائه واشراقه ،**

وهو فى الخامسة والستين ، مهددا فى منفاه بالغزو الفرنسى ؟!
أما « جوليا » و « أدريانا » فأنهما كانتا قد إبتعدتا عن محيط عائلة « بورجيا » فى ذلك الحين .. اذ فضلتا ـ منذ دخلت الجيوش الفرنسية روما ـ أن تكون أقامتهما فى قصر « أورسينى » ، متجنبتين مشاطرة البابا محنة أسره فى (سان أنجيلو) .. **ويبدو ـ فى الوقت ذاته ـ أن البابا كان قد استبان أن ابنته «لوكريشيا» ، لا عشيقته « جيوليا » ، هى اللازمة لسعادته** ، وأن عاطفته المتأججة نحو جوليا قد أطفأ شعلتها مارآه من خيانتها وغدرها !

***

وكان «أليكسندر» ـ فى ذلك الحين ـ يدير فى منفاه دفة سياسته ، التى هذف بها الى تحويل المعاهدة الدفاعية ـ التى ربطت بين حلفائه ـ الى ميثاق هجوم مشترك ، لتمزيق الجيوش الفرنسية أثناء انسحابها . وكان ـ اذا ما انصرف السفراء والاعوان من عنده ـ يخرج فى زى راهب بسيط ، الى صومعة أقدس الراهبات .. الأخت « كولومبيا دى رييتى » ، حيث يقضى بقية النهار فى الصلاة والتأمل !

ولعل من غرائب شخصيته المزدوجة ، انه كان يبدو فى صومعة الراهبة القديسة ـ صانعة العجائب ـ فى أبدع صورة للناسك المتبتل المنقطع للعبادة والتقوى .. حتى اذا جاء المساء ، انتقل بنفس الحماس ، الى مائدة العشاء لدى « جيان باولو باجليونى » ، **أمير (بيريجيا) ، الذى استولى على السلطة فوق جثث أقاربه من ضحاياه ، والذى كان يحيا علانية حياة الفسق مع شقيقته الحسناء ، اذ كان يعاشرها معاشرة العشيقات !**

وكانت «لوكريشيا» تصحب أباها الي مائدة ذلك الأمير ،

وتشاركه المتعة التى كان يستشعرها مع مضيفه الساحر وأخته الفاتنة .. **فماذا كان أحساس ((لوكريشيا)) ياترى نحو تلك العلاقة المفضوحة بين الأمير وأخته ؟ !**

لعل ما حدث ـ بعد ذلك ـ من « لوكريشيا » ذاتها مع أخيها ، هو الأجابة على هذا السؤال .. فانها بعد الحياة المملة القاحلة المقيدة التى كانت تحياها فى (بيزارو) ، اصبحت تمرح فى جو من الحرية والاباحية ، اتاحته لها الحياة الجديدة فى (بيريجيا) ، وردتها به الى ماضيها الذى كانت شديدة الشوق اليه .. ذلك الماضى الذى كان يتمثل فى حياتها بين أبيها وأخوتها وحاشيتها ..

واذا كان هذا الماضى قد عاد حقا ـ فى جملته ـ اليها ، الا انه كان ثمة تعرض لتغيير لم يسعها الا أن تحس به وتدركه لأول وهلة .. فمع ان اباها ظل كعهدها به ، دائم الشباب ، ملتهب القلب ـ على الدوام ـ بأحاسيس الصبا ، **الا أن أخاها سيزار كان ـ على العكس ـ قد تغير كثيرا عن ذلك الفتى الذى غادرته منذ عام مضى** : فقد انسدل على روحه الطلقة ، الطموح ، المرحة ، ستار من الجمود والانقباض .. وأصبح مزاجه المتقلب المتوثب ، اشد تقلبا وقلقا .. وازداد طابع الاستهتار وعدم الأكتراث ، الذى كان يسود طبيعته .. فاذا هو فائر الطباع ، ثائر الاعصاب ، سريع الانقلاب ، قريب الغضب ، غريب الاطوار .. حتى لقد كان الخوف والفزع يتملكان « لوكريشيا » من نوبات ثورته المفاجئة ، التى لم يكن يبدو لها أى داع او دافع ، او يقف دونها أى مانع !

ولقد اشيع أن « سيزار » كان مسئولا عن مذبحة الجنود السويسريين ، الذين نهبوا منزل أمه فى أيطاليا .. وبرغم أن السفاكين الأسبان ـ الذين قاموا بتنفيذ خطة المذبحة ـ

قد نجوا ونجحوا فى الفرار ، **فأن لوكريشيا لم ترتب ـ أقل ريب ـ فى أن الاشاعة كانت صحيحة فيما يتعلق بسيزار !**

لقد غدا غريبا جدا فى عينيها . ولم يعد فى أمكانها أن تفهم طبيعته المعقدة التى وجدته ـ عند عودتها ـ يحملها بين جنبيه .. **ولكنها ـ برغم ذلك ـ استشعرت أنها ، كامرأة ، مازالت تحبه .. بل تعبده !**

وكانت أيام فرار البابا من الفاتيكان ، قد قاربت على نهايتها : اذ كان الضغط والتهديد اللذان عاناهما ملك فرنسا من جانب حلفائه السابقين ، يقسرانه على الأسراع فى الانسحاب نحو الشمال .. فما جاء شهر يوليو ، حتى كانت جيوشه قد عبرت (الابينايين) . وبلغت شواطىء (التارو) : عند تخوم سهل (لومبارديا) .. حيث التحمت مع جيوش الحلفاء. وهنالك ـ بعد معركة عنيفة بين الجانبين ـ استعاد الأيطاليون كرامتهم ، اذ أحرزوا نصرا ساحقا فى (فورنوفو) ، وأجبروا الملك على الفرار من الميدان ، تاركا خلفه غنائمه وكبرياءه على السواء .

وهكذا عاد البابا منتصرا الى الفاتيكان .. وبادر باستدعاء ولده « جان بورجيا » من أسبانيا ، كى يتولى قيادة جيوش الحلفاء .

***

وفى ذات الوقت الذى عاد فيه البابا وسيزار الى روما ؛ كانت لوكريشيا قد غادرتها الى (بيزارو) .. الا أن التصرفات المزرية ـ التى صدرت عن زوجها أثناء الحرب ـ جعلت من العسير عليها أن تأمن له بعدذلك ، أو أن تعيش معه فى وئام أو سلام .. ولذلك فانها ما لبثت أن هجرته مرة أخرى ، عائدة الى روما ، حيث عاودت حياتها المرحة العابثة مع

أسرتها التى أصبحت لا تطيق الحيـاة الا فى نطاق دائرتـها المغلقة !

وهنالك زارها مركيز (مانتوا) ـ فرانشيسكو جونزاجا ـ أثناء مروره بالمدينة فى ربيع سنة ١٤٩٦ .. فما انتهت الزيارة ، حتى كتب خطابا الى زوجته يقول فيه : **((اننى ـ وقـد كنت متعبا من مشـقة السـفر ـ ذهبت كى أقـدم احتراماتى الى ابنة البابا ، وقد أمضيت معها ليلة ممتعة)) !**

وبهذه الغمزة الماجنة ، سجل الأثر الذى تركته فى نفسه عينا « لوكريشـيا » الدافئتان ، وصوتـها النـاعم المفرد ، وفتنتها الساحرة الساحقة ، التى ساقته ـ بعد خمسـة عشر عاما من ذلك التـاريخ ـ الى الوقوع فى حبـائل أعنف أنواع الحب تهورا وخطرا !

وما مضى يومان على رحيل « جيوفانى سفورزا » ، وقد يئس من عودتها معه الى امارته ، حتى أصابت «لوكريشيا» غمزة أخرى أشـنع من سابقتها . واخبث فى مغزاها من كل ما كان يخطر ببال بشر .. فقد كتب «سكالونا» الى ماركيزة (مانتوا) يقول لها : **((لقد غادر أمير (بيزارو) روما يائسا .. تاركا زوجته تحت الستر الرسولى)) !**

أى معنى خطير تحت هذه الكلمات ، التى ما كان ليجرؤ كاتبها أن يسجلها ـ فى خطاباته الى سيدته ماركيزة مانتوا ـ لولا تأكده مما تنطوى عليه نفسـها من كراهيـة نحو آل بورجيا ، ولولا اطمئنانه الى أنها ترتاح لسـماع كل تهمـة توجه اليهم . وأنها مسـتعدة لأن تصدق أن البابا يمكن أن يرتكب كل جريمة مهما تكن شنيعة وشاذة وشائنة .. حتى مع ابنته بالذات ؟ !

الفصل الحادى عشر

• حين عادت « اوكريشيا » الى روما ، كانت تسعى الى السعادة التى لم تكن تجدها الا فى وسط عائلتها .. غير أنها لم تجد فى انتظارها ـ هـذه المرة ـ الا التعاسـة .. تلك التعاسـة التى كان عليها أن تحتسى كأس مرارتـها ، حين بلغها أن زوجة أخيها الحسناء « سانشيا » ـ أميرة اراجون ـ وصلت الى روما فجـأة ، كى توقـع الاضطـراب فى لحن صفائها !

ذلك أن « سانشـيا » ، كانت قـد وجـدت الوقت يمر طويلا وثقيـلا بين يديـها ، خـلال فترة فـرارها من وجه الفرنسيين .. وإذ كانت حبيسة فى جزيرة صخرية ، بعيدة عن بلدها الجميلة (نابولى) ـ ولم يكن معها الا زوجها الذى لم يكن قـد تجاوز الثالثة عشرة من عمره ! ـ فقد مرت بها لحظات كانت تحقـد فيـها على الدم الملكى الذى يجرى فى عروقها ، **والذى أدى بها الى ان تتزوج ذلك الطفل الساذج ، الذى بكى فى ليلة زفافهما ، والذى كانت كل مواهبه أنه ابن غير شرعى للبابا ! ..**

ولطالما شعرت ـ فى تلك الفترة ـ بالحسـد والغيرة من بنـات الشـعب اللائى ولدن فى بيئـة متواضعـة ، وبقين لاستقبال الغزاة الفرنسيين ، الذين كانوا ـ بين كل الأجناس ـ هم أفتن الرجـال وأكثـرهم فحولة وبطولة .. أما قبل الفتح الفرنسى ، فلم يكن لديها أى داع للشـكوى ، اذ كان زوجها ـ مع صغر سنه ـ ظريفا ولطيفا ، وكان يجد كل سروره فى أن يقضى أيامه فى صحبة شقيقها الصغير الفونسو . بينما تتمتع هى بصحبة من تشـاء ! .. الا أن أنباء فضائحـها لم

تلبث ان ترامت الى مسامع البابا ، **اذ قيل له أن زوجة ابنه تستقبل الرجال فى غرفة نومها ، بينما تجتهد وصيفاتها فى مشاغلة زوجها ..**

ولما كان قد اتضح أن أحدا من اهلها ـ لا أبوها الملك «ألفونسو» ، ولا أخوها « الدوق دى كالابريا » ، ولا جدتها الملكة الأرملة ـ قد حاول أن يردعها عن سلوكها الخليع . فقد صمم البابا أن يستعمل سلطته الأبوية ، وان يتدخل تدخلا حاسما .. لاسيما وقد هاج فضوله ـ فى تلك الاثناء ـ انه بدأ يرى بنفسه اى نوع من النساء زوجة ابنه هذه ، **التى كان الرجال يتحدثون ـ مبهورى الأنفاس ـ عن جمالها الأسطورى ، والتى كان مزاجها الساخن ، مماثلا لمزاجه هو !**

وهكذا صدر أمر البابا فجأة ، الى ابنه « جوفريه » ، بأن يعود الى روما ، مستصحبا معه زوجته «سانشيا » .. فما ذاع نبأ هذا القرار حتى ارتسمت علامات الاستفهام والدهشة فى كل أيطاليا . وبدأ عشاق الفضائح يتغامزون ، قائلين : « ان صاحب القداسة ، اذ سمع أن المادونا جميلة جدا ، قد اشتاق لأن يراها بنفسه .. » !

***

« **اما** انها جميلة ، فتلك حقيقة لا يمكن لأحد أن ينكرها » .. هكذا كتب « سكالونا » الى مولاته ماركيزة (مانتوا) ، ثم استمر فى وصفها قائلا : «**ومع ذلك ، فمن العسير تحديد سر جمالها :** فهل هو ياترى فى التباين بين بشرتها السمراء وزرقة عينيها التى تحكى لون السماء ، أو لون ماء البحر حين تهب عليه ريح الجنوب الهوجاء ؟ .. أو هو فى الأنسجام بين أنفها الدقيق الاقنى وفمها المتلىء بالدفء والاشتهاء ؟ ..

أو هو يكمن فى كبرياء سيمائها الملكى ، والطريقة التى تحمل بها رأسها الأسمر الصغير . وتعبث بخصلات شعرها المتناثرة وأشرطته الحريرية الفاخرة ؟ .. أو أن سحرها أنما ينبع من ثغرها الذى يحمل ـ على الدوام ـ ابتسامتها الفاجرة الساخرة ؟ ! »

ومهما يكن من سر جمالها ، فقد ختم سكالونا رسالته قائلا :« أنها ذئب فى ثوب حمل »؟ ! .. وان الذهول استولى على البابا وحاشيته ، منذ ان ظهرت فى الفاتيكان ، لاول مرة !

وباعتبارها بنت ملك ، وأخت ملك ، تحدد موعد دخولها الرسمى الى روما فى ٢ مايو سنة ١٤٩٦ .. ومع أول خيط من خيوط الصباح . فى ذلك اليوم ، وصل الموكب الفاخر . وكان الأمير والأميرة يرتديان ثيابا سوداء ، على الطريقة الأسبانية .. أما « جوفريه » ، فقد كان رشيقا ، ناعما ، دقيق الملامح ، كبير الشبه بأخته « لوكريشيا » . وفيه كل فتنة أمه « فانوزا » .. ولكنه لم يؤت أى نصيب من رجولة أبيه ، ولا شيئا من قوة آل بورجيا الجسدية . **ولذا ، فلا عجب أن كان البابا يشك أحيانا فى أبوته له ! ..** وكانت شمس البحر الأبيض قد لوحت بشرته بلون البرونز ، الا ان الصحة رسمت وردتين على وجنتيه ، وبثت فى أعطافه رخاوة أجساد النساء. حتى ان عيون الفضوليين الثرثارين، كانت ـ اذا ما وقعت عليه ـ تومض ببريق يطفح بالخبث والتساؤل الماجن ، **والاتهام بأقذر ما يمكن ان يتهم به فتى جميل الصورة ، رطيب الغصن ، لم يبلغ بعد مبلغ الرجال !**

وأما « سانشيا » ، فكان لها مظهر غانية ولدت بطبيعتها عاهرة ! .. كانت وجنتاها المصبوغتان بلون الورد الصارخ الحمرة ، ورداؤها الأسود المحبوك على مفاتن جسدها الناصع البشرة ، والنظرات الجريئة الوقحة التى تنبعث من عينيها

الواسعتين اللامعتين .. كان كل هذا يعطيها سيماء امرأة اكبر من سنها التى لم تكن قد تجاوزت التسعة عشر ربيعا .. ومع كل ما كان يبدو عليها من خفة وخلاعة لا تليقان ببنات الملوك ، فقد بهر جمالها كل أبناء روما ، حتى لقد توارى – الى جانبها – نجم « لوكريشيا » .. **وبادر «سكالونا» بالكتابة الى مولاته ، يقول : « ان أميرة بيزارو قد استطاعت من أن تكون لها منافسة فى الفاتيكان » !**

ولاشك أن بريق «لوكريشيا» قد خبا أمام ما كان لزوجة اخيها من فتنة جارفة ، فلم تملك ان تخفى عن الناس ما اندلع بين جوانحها من غيرة .. اذ كانت قد ألفت – خلال الشهور الأخيرة – سماع عبارات الثناء على جمالها ، وضاعف من خيلائها واعتزازها بحسنها أن الغانيات الرومانيات لبسن شعورا مستعارة من خيوط الحرير ، محاكاة لشعرها الذهبى الطويل ، وراح الشعراء يتغنون بفتنة محياها الجميل .. ثم اذا بها – لأول مرة – تعانى مرارة التحدى ، لا من « جونيا » – التى كانت حظوتها لا تعتمد الا على مزاج البابا – وانما من «سانشيا» ، الأميرة الملكية ، التى كان من المحتمل ان تتمكن بفتنتها ، وجلال مركزها ، من أن تحتل مكانها فى البلاط البابوى ..

ومهما تكن هواجس « لوكريشيا » ، فانها – فى بادىء الامر – اطلقت نفسها على سجيتها مع «سانشيا» ، حتى لقد نالت منذ لقائهما الأول ثقتها وحبها . وبدت كلتاهما – بعد ذلك – متلازمتين لا تفترقان فى الحياة العامة أو الخاصة على السواء . وما لبث « جيوفانى سفورزا » – أثناء رحلته فى (ريتيو) – أن سمع انباء مساهمة زوجته فى فضائح زوجة أخيها !

فقد دخلت « سانشيا » فى دائرة أسرة آل بورجيا ، فزادتها اختلاطا فوق اختلاط : فمنذ اللحظة الأولى ،

اعتبرها حماها وأخو زوجها فاجرة ضلت سبيلها الى طبقة الملوك .. وكان منطق « سيزار » ـ بالنسبة اليها ـ فى منتهى الوضوح : **اذ ما الذى يدعوه الى ان يبحث ـ بعد اليوم ـ عن متعته فى المواخير ، بينما لديه ، فى منزل أخيه ، غانية جميلة فى متناول اليد ؟ !** .. وأما البابا ، فقد كان رجل عائلة بمعنى الكلمة .. وقد فضل لزوجة ابنه أن تستغل مواهبها داخل نطاق الأسرة ، بدلا من أن تبددها فى الخارج ، وتسبب الاضطراب فى الحاشية البابوية ! !

***

ولم يمض وقت طويل ، حتى انطلقت الشائعات بأنباء الفضائح المتتالية التى كانت كل منها أشنع من سابقتها : **فقد أصبح ((سيزار)) زائراً يوميا لمنزل أخيه ، وكان يجد هنالك ترحيبا من الجميع ! .. فكان أخوه ((جوفريه)) يجد مسرة فى كل ما يدخل السرور على قلب زوجته ((سانشيا))** .. وكانت « سانشيا » تجد فى رجولة « سيزار » ، وقوامه المرهف ، ودمه الساخن الفوار ، ما يطفىء نار وجدها ويعوضها عن رخاوة زوجها !

وأما «لوكريشيا» ، فما كان حبها الظاهر لزوجة أخيها ، الا لأنها كانت تضمن فى صحبتها وجود « سيزار » على الدوام بقربها ! .. **ولأنها كانت تكتسب منها علما بما كانت تجهله من فنون الغرام :** فمع ان «لوكريشيا» كانت مشبوبة العواطف بطبيعتها ، الا انها كانت ساذجة فى بذل نفسها حسب اتجاه حسها .. **فاذا كرهت ((جيوفانى)) منعته ، واذا عشقت ((سيزار)) منحته** .. بيد انها لم تلبث ان بدأت تدرك أن الاستسلام الدائم لمن تحبه ، ليس هو السبيل الى استبقاء صبابته ، وتأجيج نار العشق فى قلبه .. وانما ـ

كمثل سانشيا ـ ينبغى لها أن تثير ثم تتمنع ، وان تقبل ثم تنسحب ، وان تبتسم ثم تنتحب . . وهكذا ، الى ان تستسلم آخر الأمر !

وكانت «لوكريشيا» تغار من « سانشيا » . ولكنها كانت معجبة بفطنتها فى شئون الحب ، فاتخذتها أستاذة لها ، وراحت ترقبها وهى تلعب بأبيها وأخيها على السواء : فكان البابا يغتبط بما تبديه زوجة ابنه له من رعاية ، فينتشى بالرضا . . وكان « سيزار» يطاردها بعينين تومضان بالرغبة الملتهبة ، ويحاصرها بسحره الذى لا يمكن لأنثى أن تقاومه . . و « جوفريه » عن كل ذلك فى غفلة ولهو . . اشبه بفلام أسرف فى التهام الحلوى ، فعافت نفسه الطعام !

***

ولم يكد الصيف يشرف على نهايته ، حتى رحلت « لوكريشيا » عائدة الى (بيزارو) بمحض رغبتها . . وسواء كان ذلك لأنها لم تعد تطيق رؤية «سيزار» مستهاما بزوجة أخيه ، أو لأنها كانت تفر من المسرح الذى منى فيه غرامها بسيزار بخيبة مريرة ، فانها آثرت ان تلوذ بزوجها . . **ولكن ذلك الزوج كان يطوى جوانحه على مرارة ضافية . .** اذ كان « جيوفانى سفورزا » قد تبين تفاهة الدور الذى وكل اليه فى حملة (نابولى) ، وضخامة النفقات التى تكبدها . .

وضاعف من ايغاره ان انتشرت الشائعات ـ بل الاغانى والنكات ـ عن تنافس لوكريشيا وسانشيا على الحظوةلدى البابا ، والاستئثار بالكردينال . . سيزار . ومن ثم فقد كان جيوفانى على استعداد لأن يفثأ غيظه فى زوجته . ولم يفلح عناقها الحار ـ حين عاد من نابولى ـ فى تبديد شكوكه وغضبته لكرامته . . بل لقد زاده سخطا ان راح يشهد تلك

الحركات والايماءات التى كانت تحاول بها تقليد «سانشيا» فى تهتكها وتبذلها !

ومع أنه لم يكف عن توجيه اللوم والاتهام اليها ، الا انها آثرت ان تمكث فى (بيزارو) ، وأن تبدى من الجلد والاحتمال ، ما أوهم الجميع بأنها كانت سعيدة مع زوجها .. وانه كان سعيدا بها !

وفى تلك الاثناء ، وقعت أحداث جديدة فى اسرة بورجيا .. **فان ((جان بورجيا)) ـ دوق جانديا ـ عاد الى لندن ، مخلفا زوجته وابنه الطفل فى اسبانيا ، دون ان يحفل بمسئوليات** .. وبالرغم من كل مساوئه وانحلاله ، فان ايثار ابيه اياه ، كان يشجعه على ان يغمض عينيه عن كل عيب .. ولما كان البابا منهمكا ـ اذ ذاك ـ فى اعداد حملة لتحقيق مطمع طال به الشوق اليه ، **وهو الاستيلاء على املاك آل ((اورسينى))، فقد طاب له ان يقلد هذا الابن المدلل قيادة الحملة ..**

وكانت الظروف ملائمة ايما ملاءمة ، اذ كان عميد آل اورسينى ـ فيرجينيو اورسينى ـ أسيرا فى (نابولى) ، وكان جيشه يتخبط بدون قيادة .. وفى خلال اسبوع واحد ، تهاوت عشر قلاع أمام الحملة البابوية .. بيد ان النكبات لم تلبث ان تلاحقت ، ثم هطلت امطار الشتاء .. وبدأت قوات البابا ، تحت قيادة « جان » المدلل ، تترنح وتتعثر .. وكان وقع هذه الاحداث قاسيا على «البابا» حتى لقد بدأ يتعرض لنوبات من الاغماء ، زعم خصومه انها نتيجة صرع ، فى حين انها كانت ـ فى الواقع ـ وليدة ارتفاع ضغط الدم ..

وتلقى الامراء والسفراء انباء هذه النوبات فى رجاء ، وقد بدا جليا ان آل بورجيا كانوا يحاولون ان يقتطعوا لأنفسهم مملكة من املاك الكنيسة وحلفائها !

ومنيت القوات البابوية ـ أخيرا ـ بهزيمة مخزية ، جرح خلالـها قائدها واضطر الى الفرار ، فتمت بذلك ذلة البابا وهوانه .. وهدته ديبلوماسـيته الى ان خصومه كانوا قد تكبدوا خسـائر مرهقة ، ما كانت لتسـمح لهم بالتعنت فى املاء شروطهم ، فسـارع الى مفاوضتهم لكسـب ما يمكن كسبه .. وفعـلا ، وقعت معاهدة الصلح فى ٥ فبراير سنة ١٤٩٧ ، وبمقتضاها رد البابا الى آل اورسـينى قـلاعهم ، فى مقابل فدية باهظة يدفعونها !

الفصل الثانى عشر

• **لم يخالج** احد شك فى ان لوكريشيا كانت جد سعيدة بزوجـها ، مدلهة فى هواه ، عندما عادت ـ بصحبته ـ الى روما ، فى يناير سنة ١٤٩٧ ..

ذلك لانها ـ برغم سـذاجة مظهرها ـ كانت قـد غدت امرأة ، نما فى اعماقها دهاء الانوثة ممزوجا بدهاء آل بورجيا ، ومن ثم فاقت الجميع فى الـرياء والتلون وفقـا للظـروف والاوساط .. ومع انها كانت تبدو مجرد متفرجة ، تشهد جرائم اسرتها وعلى شفتيها ابتسامة باهتة ، **الا ان الوقائع تثبت انها كانت ـ طيلة عهد ابيها ـ سيدة ((الفاتيكان)) بلا منازع !** .. فما استطاع امرؤ ـ حتى سانشيا ـ ان ينتزع منها مكانة كهذه ، كانت تتطلب الكثير من الحذق ، واللباقة ، وسعة الادراك !

وساعدها على التربع فى هذه المكانة ، ان الظروف دفعتها ـ منذ عودتـها الى روما ـ الى ان تكون وسـيطا وحكما فى كافة المنازعات التى كانت تجرى فى محيط الاسرة . **على انها**

كانت تخفى ـ تحت مظهر الطيبة والتلطف ـ غريزة انثوية لايخبو اوارها ، اذ كانت منذ الصغر ، قد ألفت كيف تعبث بسيزار عن طريق استثارة غيرته ! .. وكان هذا سلاحها الوحيد ضد أنانيته العارمة .. ومن ثم . فلعل ما راحت تبديه من ولاء لزوجها ، كان مجرد تمثيل ارادت به ان تصيب اخاها فى اضعف نقاط الضعف فى نفسه وهى : **الغيرة الهوجاء المجنونة !**

ومع ان «سانشيا» كانت قد أصبحت العشيقة المستأثرة بلب « سيزار » ، الا ان مرأى اخته وهى تتدله فى هوى زوجها ، وتسعد به . كان كافيا لأن يثير تلك العاطفة الجامحة التى لازمته من الصغر ، فينقلب ازدراؤه لزوج اخته الى كراهية لم تبصر « لوكريشيا » مدى خطورتها ..

ولم تكن غيرة « سيزار » هى الخطر الوحيد الذى راح يهدد مستقبل « جيوفانى سفورزا » . **فان البابا كان قد تبين ان هذا الزواج لم يعد صالحا لخدمة اغراضه ، فقرر ان يتخلص من صهره بأقل ضجة ممكنة** .. وما كان التعلق ـ الذى راحت لوكريشيا تبديه لزوجها ـ بالذى يرد البابا عن مشروعاته .. كان قد تحقق ـ فى العام السابق ـ من ان تحالفه مع آل سفورزا لم يعد ذا نفع سياسى .. **وما كان ليتورع عن الغدر ، ولا عن ان ينتهك التزاماته السياسية والكنسية ـ على السواء ـ لكى يحل ابنته من ارتباطاتها بجيوفانى !**

وظل آل بورجيا يعاملون جيوفانى كفرد منهم ـ فى الظاهر ـ حتى انتهت حفلات «الكرنفال» ، واشبعوا خلالها كل نزواتهم .. وما ان انجابت سكرة هذه الحفلات ، حتى فطنت « لوكريشيا » الى الاخطار الجاثمة ، **اذ تبينت** ان غيرة « سيزار » كانت اعنى من ان تستثار ، وان المنازعات

والمزاحمات التى قامت بين أخويها كانت أشد ضراوة من ان تهدئها محاولاتها !

وكانت الاشهر الأخيرة قد جلبت على «سيزار» الكثير مما ساءه .. كان قد شهد «جان» يرقى اعلى مناصب الجيش ، دون ماجهد ولا كفاءة ..وبالرغم من ان ايطاليا كلها ضحكت من هزيمته ـ فى الحملة ضد آل اورسينى ـ فقد استقبله البابا بنفس الاعزاز والتقدير اللذين اعتاد ان يسبغهما عليه دون « سيزار » ..ومع ان **((البابا)) لم يكن ظالما لسيزار ، بل انه كان يعد له العدة ، كى يورثه عرشه البابوى ، الا ان هذا لم يكن طامعا فى المنصب الكنسى ، ولا كان راضيا عن الاتجاه الكهنوتى ..** فلم تبد له جهود ابيه من اجله ، فى قيمة جهوده من اجل « جان » ..

وزاد العلاقات بين الاخوين توترا ، ما دب بينهما من تنافس على قلب زوجة اخيهما . اذ ما عاد « جان » من حملته الخاسرة واستقر به المقام فى روما ، حتى أدارت « سانشيا » عينيها الزرقاوين نحوه .. وسرعان ما وجد عشاق الفضائح قصة جديدة يروونها ، قائلين : **((ان الساحرة ذات العينين الزرقاوين .. قد أدفأت سرير الأخوة الثلاثة)) !**

وهكذا دخلت «سانشيا» فى دائرة أسرة بورجيا ، فبذرت فى ارضها بذور الشقاق والشقاء ، وسقت قلوب أبنائها جميعا بالكراهية العمياء ، وأحرقت بنار الغيرة ما كان يزدهر فيها من مرح ولهو : فما من واحد منهم الا أصبح ينظر لأخيه نظرة الحقد ، ويضمر له شر ما يضمر العدو لعدوه .. وأما « جيوفانى » ــ وهو الغريب الوحيد بينهم ــ فقد نال عداوتهم كلهم على السواء !

***

على أن البابا استمر – مع ذلك – يظهر الرضى لزوج ابنته ، ويتظاهر نحوه بالأعزاز أمام الناس .. حتى انه خلال الاحتفال بأحد الشعانين – فى كنيسة « سان بيتر » – آثره بأول فرع من السعف قدمه « البابا » بيده لأحد .. **ومع ذلك ، فلم تكد تمر خمسة أيام على هذا العطف الابوى ، حتى شاع أن «جيوفانى» قد أسرع فجأة بالفرار من المدينة !**

وكان رحيله غير متوقع .. وملأ السفراء تقاريرهم – الى ملوكهم وأمرائهم – بالتكهنات والشائعات المتناقضة : فقال بعضهم أن معركة عنيفة نشبت بينه وبين دوق جانديا .. وقال آخرون أنه تلقى تهديدا بقتله بالسم ، وأن زوجته حذرته – فى آخر لحظة – من الخطر المحدق .. الا أن احدا لم يعرف الحقيقة !.. وكل ما نعلمه هو أنه فى الصباح المبكر من يوم الجمعة العظيمة – فى ١٤ مايو سنة ١٤٩٦ – غادر «جيوفانى» قصر زوجته ، متظاهرا بعزمه على القيام بجولة بين الكنائس السبع ، وأنه بعد أربع وعشرين ساعة كان قد وصل الى (بيزارو) !

وقد روى « مولاندى » – طبيب أسرة « سفورزا » – أن « لوكريشيا » كانت قد أخفت واحدا من الخدم خلف أحدى الستائر ، فتمكن من سماع حديث **فهمت منه نية «سيزار» فى اغتيال زوجها ، فأسرعت الى أخطاره كى يبادر بالفرار..** الا أن شائعات أخرى ألقت التهمة على «لوكريشيا نفسها ، مؤكدة أنها هى التى كانت قد دبرت الخطة لاغتيال زوجها .. وقيل بل انها علمت بالمكيدة وتسترت عليها ، وأن زوجها كان يشك على الدوام فى أخلاصها ، ولا يستبعد

صورة من لوحة ((مناقشة القديسة كاترين)) ، التى رسمها ((بيينتوريكيو)) ..ويرجح انه نقل ملامح الوجه وقسماته ، عن ((لوكريشيا بورجيا))

الخيانة عليها ، مرددا اعتقاده فيها أنها « ليست أفضل من عاهرة » !

ولو كان « جيوفانى » يشك فى زوجته حقا . الى هذا الحد ، فلماذا بذل ـ بعد رحيله ـ تلك الجهود الجنونية لاستعادتها اليه ؟ .. ولماذا راح يكتب اليها الرسائل ـ واحدة فى اثر الأخرى ـ متوسلا اليها أن تلحق به فى (بيزارو) ؟ !

وان كانت « لوكريشيا » ـ من الجهة الأخرى ـ بريئة من تهمة التآمر على قتله ، فلماذا تخلت عنه ، وصمت أذنيها عن كل توسلاته ، وتركت اباها يتخذ اجراءات الطلاق ضده ؟ .. ولماذا وضعت اسمها على مستند أعلنت فيه انه : **« لما كان زوجها مصابا بالعجز الجنسى ، فأنها لاتزال بعد عذراء .. »** ؟ .. ذلك الأدعاء الذى يقول « سانيدو » فى مذكراته أنه « بعث الضحك فى افواه كل ايطاليا » !

على أن « جيوفانى » ـ حين وجد نفسه مهانا ، مهجورا من زوجته ، مطعونا فى صميم رجولته ـ **نهض كالطائر المذبوح يناضل ، فى شجاعة ألهب نارها يأسه القاتل ، مقاوما طلبات البابا** .. حتى اذا أرسل اليه قداسته قائد « الأغسطينيين » كى يغريه ، أو ـ اذا لزم الأمر ـ يقسره على الطلاق ، رفض أن يعطى اية اجابة قبل ان يستشير ابناء عمه من آل سفورزا . ولكنه ـ لخيبة آماله ـ تبين فى هذه اللحظة المريرة بالذات ، أن رأس عائلته ـ دوق ميلان العظيم ـ لم يكن الا رجلا من قش .. فان علاقاته الشائكة مع (فينيسيا) ، ومخاوفه الدائمة من فرنسا ، دفعته الي أن

يحافظ على حسن صلاته بالبابا . فما وصل « جيوفانى » التعيس الحظ الى ميلان ، كى يلتمس معونته وتعضيده ، حتى تلقى نصيحته فى برود : **«من الحماقة أن ترفض الطلاق ، فى حين أن من حقك - اذا قبلت - أن تحتفظ ببائنة زوجتك ، وتحتفظ بحسن علاقتك مع البابا فى ذات الوقت » !**

أما الأهانة التى لحقت جيوفانى فى عرضه ، والقذف الذى اصابه فى رجولته ، فلم يكن لدى الدوق الشهم علاج لهما الا أن يثبت « جيوفانى » للناس دليل هذه الرجولة المنكورة عليه ، قائلا له : **« دع البابا يرسل ابنته الى قلعة (نيبى) ، مقر « اسكانيو سفورزا » .. وهناك - بحضور نائب البابا ، وسفير ميلان - يمكنك أن تثبت قوتك الجنسية مع زوجتك .. » !**

وهكذا تلقى « جيوفانى » تلك الطعنة المريرة من ذات الرجل الذى ظن انه سيكون ملجاه وحاميه فى ذلك الظرف العصيب .. حتى اذا جاهر حانقا برفض ذلك الاقتراح الشائن الماجن - من عميد أسرته - جاءته الطعنة الأخرى منه ، اذ قال له : **« ما دمت ترفض أجراء هذا الأمتحان .. فأنت اذن تشك فى نجاحك فيه » ! !**

وحينئذ فقط ، وفى غيظ اليائس المحموم الذى أغلقت فى وجهه كل الأبواب ، اضطر جيوفانى الى أن يطلق آخر سهم فى جعبته .. وياله من سهم بشع ، ما انطلق حتى احدث دويا فى أيطاليا كلها ، اذ صاح « جيوفانى » فى وجه ابن عمه مؤكدا انه أثبت رجولته مع زوجته ألف مرة .. **«وانما يريد البابا أن ينتزعها منه ، لا لسبب الا ليعاشرها هو نفسه .. » ! !**

الفصل الثالث عشر

• **كانت** فضيحة طلاق « لوكريشيا » هى حديث أيطاليا كلها . الا أن فضائح آل بورجيا ما لبثت – بعد ذلك – أن توالت فى سلسلة متشابكة الحلقات ، جنبا الى جنب مع سلسلة جرائمهم ، التى ضج من هولها الاحياء والاموات ، وكانت حديث الدنيا بأسرها فى كل عصور التاريخ .

فقد انطلقت الشائعات فى كل انحاء المدينة ، مرددة أقذر الحكايات عن « جان بورجيا » .. **وقيل انه ما من عذراء صغيرة ، أو غادة جميلة ، نجت من غزواته ونزواته** . وقد أثارت سيرته الشائنة اشمئزاز النبلاء الرومانيين ،وملأت صدورهم بالحقد والحنق عليه . ولقد حدث – فى أحدى الليالى – أن كان فى مأدبة أقامها الكردينال « سفورزا » فى قصره ، فصدرت منه أهانة لأحد الضيوف . فما كان من الضيف الا أن شتمه قائلا : « يا ابن الزنا » ! .. ولو كان رجلا شهما لاستل سيفه كى ينتقم من غريمه بنفسه ، الا انه – كالطفل الجبان – ما لبث أن أسرع الى الفاتيكان ، كى يشكو لأبيه من تلك الاهانة التى لحقت شرف العائلة ! .. والعجيب أن البابا – وقد كان من عادته ان لايتصرف الا بمنتهى الحكمة والتبصر – لم يكد يسمع القصة من ابنه ، حتى ثار ثائره ، وأصدر أمره – على الفور – الى قوات حرسه ، كى تقوم بالقبض على المجرم الأثيم ، فتعدمه فى الحال !

وهكذا بدأ البابا يقع تحت سيطرة أبنائه ، ويحقق كل رغبة يبدونها له ، ويغدق عليهم كل ما يشتهونه من مناصب وألقاب : وكان آخر أمر له ينطوى على منفعة وتشريف لأحد

أبنائه ، هو تعيينه « سيزار بورجيا » ـ فضلا عن كونه كردينال فالنسيا ـ قاصدا رسوليا فى نابولى ، مع منحه سلطة خاصة ، كى يقلد « فدريجو دى اراجون » ، وراثة عرش (نابولى) ..

وفى مساء ١٤ يونيو سنة ١٤٩٧ ـ قبل يومين من الميعاد المرسوم لرحيل «سيزار» الى مقر منصبه الجديد ـ أقامت « فانوتزا دى كاتانى » وليمة لأبنائها من البابا ، تحت أفنان كرمتها ، فى ضواحى المدينة . وهنالك جلست « فانوتزا » ـ وكانت بعد محتفظة بجمالها وفتنتها ـ على راس المائدة المحلاة بالزهور ، والمحملة بأطيب الأطعمة والخمور ..

وزوجها يدير كؤوس الشراب على أبناء زوجته !

الا أننا ـ للأسف ـ لانعلم الا القليل عن هذه المأدبة التى كانت ـ على ضوء الأحداث التى جرت بعد ذلك ـ مأدبة مشئومة . وكل ما وصل الينا أنه لم يحضرها غريب سوى الكردينال « مونريال » .. ابن عم الأبناء . حتى اذا أوشكت الوليمة على نهايتها ـ بعد منتصف الليل ـ خرج فجأة من ظلال الكروم ، شخص ملثم ، واقترب من « جان » ، وأراد الحديث معه .. فقام « جان » ، وقام معه أخوه « سيزار » وابن عمهما الكردينال ، يتبعهم خدمهم .. وبارحوا ـ تحت جنح الليل ـ كرمة « فانوتزا » ، وساروا جميعا ـ ضاحكين مغنين ـ عبر الطريق المنحدر على جانب التل ، الى شوارع روما التى كانت غارقة فى السكون . وكانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل حينما وصلوا الى بقعة كان يقوم فيها ـ فيما مضى ـ قصر البابا بورجيا ، وقد آلت الى مستشار الفاتيكان ، « أسكانيو سفورزا » . وهنالك وقفوا قليلا ثم تفرقوا : فعبر سيزار وابن عمه الكردينال الجسر الى (البورجو) ، فى **حين أن ((جان)) صرف كل خدمه**

ـ ماعدا سائس واحد ـ وعاد فى صحبة رفيقه الملثم الى الشوارع الضيقة ، واتجها معا نحو حى اليهود .

وفى اليوم التالى ، انطلقت الشائعات ـ فى كل روما ـ باختفاء «جان بورجيا» .. حتى اذا انقضى النهار ، واقتربت طلائع الليل ، ابتدأ البابا يساوره القلق والانزعاج ، وقد مضى الوقت ولم ترد اية أخبار عن ولده . فلما طال انتظاره بغير جدوى ، أرسل رجال الشرطة يبحثون عنه فى كل انحاء المدينة .. ولم يمض وقت طويل ، حتى انقلب قلقه الى ذعر هائل ، اذ جاءت الأنباء بأن السائس ـ الذى كان يرافق الدوق فى تجواله بعد منتصف الليل ـ قد وجد مقتولا فى احد الأزقة القريبة من حى اليهود .. **وحينئذ ، وفى نوبة من الرعب المجنون ، أصدر البابا أمره الى فرقة حرسه الأسبانيين بأن يفتشوا المدينة بيتا بيتا.** فانطلقوا كالوحوش الكاسرة خلال الشوارع ناشرين الرعب فى كل مكان . وقد استنفر تهجمهم وتعديهم آل كولونى وآل اورسينى ، فاستلوا سيوفهم ، وانبروا يقاتلونهم .. وما لبث الشعب أن ساد طول الشاطىء اليسارى للنهر من (بييزا ديلبوبولو) حتى (مونتى سافيللو) .

ومضى الوقت حتى انتصف الليل ، دون ان يتسنى العثور على اكثر من جواد الدوق المفقود ، وقد وجد منطلقا وحده فى الأحراش المحيطة بروما .. وقرب الفجر ، قبض رجال الشرطة على بائع أخشاب ، كان يعرض بضاعته على شاطىء النهر .. ورغم انه ظل وقتا طويلا ينكر معرفته اى شىء ، فقد انهار آخر الأمر تحت وطأة التعذيب ، واعترف بأنه بعد أن أنزل اخشابه من قاربه ـ فى الليلة السابقة ـ ذهب لينام فى القارب المشدود الى الشاطىء . وما غفت عيناه قليلا ، حتى استيقظ على صوت اقدام تتجه الى ناحيته ،

ورأى رجلين يقتربان ، حتى اذا وجدا المكان خاليا ، اعطيا أشارة الى شخص ثالث ، ما لبث أن خرج من تحت الظلال راكبا جوادا أبيض ، وهو يحمل خلفه حملا تبدى - حين وقع الضوء عليه - أنه جثة هامدة .. وقد سار بها الى نقطة على الشاطىء ، حيث رفعها الرجلان الآخران ، ودفعا بها بعيدا فى النهر ..

***

وصدر الأمر الى كل الصيادين فى روما ، أن يبحثوا فى النهر .. وهنالك ، فى العشب النامى حول جزيرة (التيبر) ، عثر أحدهم على جثة ابن البابا ، وقد نفذت فيها ثمانى طعنات ، الا أنها كانت كاملة الثياب ، ولم يكن يبدو عليها أى أثر لمحاولة السرقة ..

ونقل جثمان «جان» فى زورق الى كنيسة «سان أنجيلو» .. وهناك غسلوه ، وضمخوه بالعطور ، ودثروه بثوبه الرسمى .. وبهذه الصورة رآه أبوه المفجوع ، للمرة الأخيرة .

وكاد الألم الصارخ أن يقضى على البابا .. فقد كان هذا هو ابنه المفضل المأمول ، الذى كان يدعوه « درة عينه » ، والذى كان ينظر اليه كأنه « كتيبة كاملة مدرعة » . وحين تحرك موكب الجنازة من « سان أنجيلو » - فى المساء - متجها الى كنيسة آل بورجيا فى (سانتا ماريا ديلبوبولو) ، سمع المشيعون صوت شهقات بكاء البابا يرتفع فوق أنغام الأناشيد الجنائزية الحزينة .. ثم ظل البابا ثلاثة أيام مغلقا أبواب حجرته على نفسه ، رافضا أن يتناول أى غذاء ، بينما كانت حاشيته مجتمعة فى خارج الحجرة ، يتنازعها الانزعاج والاضطراب ، ولا يصل الى آذانهم منه الا صوت بكائه الذى لم ينقطع .

وفى ٢٩ يونية ، كان البابا قد استرد بعض جلده ، وتمكن من ضبط النفس بالقدر الذى ساعده على الظهور علانية أمام شعبه ، فما من أحد ـ ممن كانوا يكرهونه أعنف الكره ـ الا استشعر الأسى والأسف من أجله ، حينما رآه وقد بدا ـ لأول مرة ـ كرجل محطم ، وراح ينوح كالطفل أمام رجال حاشيته ، وهو يقول لهم خلال دموعه أنه **((لو كان لديه سبع بابويات ، لتنازل عنها جميعا ليعيد الحياة الى ابنه)) !**

وفى ذات الوقت ، كثرت الشائعات عن سر مقتل دوق جانديا : وقد اتجه الأتهام لأول وهلة الى الكردينال «سفورزا » ، بسبب المشاحنة التى حدثت فى قصره ، وأدت الى اعدام أحد زائريه لأنه أهان الدوق .. واتهم البعض الكونت «ديللا ميراندولا» ، لأن الدوق حاول أن يغوى أبنته .. بل أن العداء المستحكم بين افراد عائلة بورجيا ذاتهم ، ادى الى توجيه التهمة الى أمير (سكويلاس) ، وأمير (بيزارو) .. الا أن البابا ما لبث أن كذب رسميا كل هذه الشائعات ، معلنا انهمقتنع تمام الاقتناع ببراءتهما .

ومع ذلك ، فنحن نقرأ فى رسالة من سفير (فينيسيا) ـ فى ١٧ يولية ـ مانفهم منه أن ((جيوفانى سفورزا)) كان هو المتهم الأول ، اذ يقول : **((ان الاعتقاد السائد أن أمير بيزارو هو الذى اقترف الجريمة ، حقدا على الدوق ، لأنه اتخذ زوجة الأمير خليلة ، مع انها اخته)) !**

وكانت ((لوكريشيا)) ـ فى ذلك الوقت ـ قد لاذت بدير ((سان سيكستوس)) ، من فضيحة طلاقها .. الا أن جدران الدير كانت غير قادرة ـ مع ذلك ـ على أن تحمى لوكريشيا من أن ينغمس اسمها فى الفضيحة الجديدة ، التى أحاطت

بمقتل شقيقها « جان » .. ومع أن علاقتها بذلك الشقيق كانت غامضة ، **فأن الغيرة المتبادلة بينه وبين ((جيوفانى)) من جهة ، وبينه وبين ((سيزار)) من جهة اخرى - من اجل لوكريشيا - جعلت الدافع الى القتل موجودا ومحتملا ..**

وعلى ذلك فان سنير (فينيسيا) لم يكن - فيما قال - الا مرددا للتقولات التى كانت شائعة بين الناس . ولم يكن الأتهام الذى وجهه الى « جيوفانى» الا أثرا من آثار السمعة الشائنة ، لتلك الفتاة ذات السبعة عشر ربيعا ، التى وصفها « سانازانو » ، بأنها : « زوجة ، وابنة ، وزوجة ابن صاحب القداسة البابا » !

الفصل الرابع عشر

• **ظل** مقتل «جان بورجيا» سرا غامضا ، وباءت بالفشل كل الجهود التى بذلت لأماطة اللثام عنه . ومع ذلك لم يحاول أحد من المحققين أن يتحرى حقيقة ذلك الشخص المتنكر الذى كان يرافق القتيل فى مغامرته الليلية الأخيرة ، ولم يقذف « التيبر » بجثة أخرى حتى يرتاب أحد فى أنها جثة هذا الشخص . . وعلى ذلك فقد قابل «جان بورجيا» موته بمفرده ، فى حين أن رفيق غزواته اختفى فى أعماق الليل .. **فهل ترى كان آل بورجيا على علم بحقيقة هذا الشخص ، ولكنهم - لأمر ما - فضلوا أن يبقوا تلك الحقيقة سرا فيما بينهم ؟**

على أن الذى حدث بعد هذا ، كان أشد عجبا ، وأدعى الى الدهشة والتساؤل : فما كادت تنقضى ثلاثة أسابيع على مقتل الدوق . حتى أصدر البابا أمره الى رجال الشرطة بأن

يكفوا عن بحثهم وتحرياتهم ، والى المحققين بأن يتوقفوا عن تحقيقاتهم وتوجيه اتهاماتهم ، وكانما قد وقف بنفسه على حقيقة أراد لها أن تظل فى طى الخفاء ، وخشى عليها من الافشاء .. **وسرعان ما ذاع فى أيطاليا كلها ، ان البابا قد تأكد من أن القاتل لم يكن سوى أبنه الأكبر : « سيزار بورجيا » ! !**

وفى غمرة الحيرة والحزن ، أصدر البابا أمره الى بقية أولاده ، بأن يتركوه وحيدا ، وأن يذهبوا بعيدا عن روما ، وكأنما كان وجودهم يذكره بأبنه الحبيب .. فرحل كردينال (فانسيا) الى (كابوا) ، وفى صحبته أمير وأميرة (سكويلاس) .. فى حين ظلت « لوكريشيا » مقيمة فى دير « سان سيكستوس» ، حيث وصفها «سكالونا» بانها كانت «غارقة هنالك فى دموعها حزنا على أخيها » ..

ولكن هذه الصورة التى رسمها « سكالونا » للوكريشيا : **«تائبة ، باكية ، خاشعة ، راكعة أمام هيكل سان دومينيك»** .. صورة يصعب تصديقها مع ماذاع ـ بعد ذلك ـ من فضيحة جديدة ، كانت « لوكريشيا » بطلتها .. وكانت من أشد فضائحها شينا وشناعة : فان مأساة طلاقها ، وصدمة أغتيال شقيقها ، كانتا كفيلتين بتحطيم قلب أية غادة فى مثل سنها وغضارتها .. ولكن أشجانها لم تمنعها ـ مع ذلك ـ من أن تلتمس عزاءها وسلوتها فى مغامرة اخرى من مغامراتها الغرامية .. وكان فارسها ـ فى هذه المرة ـ **فتى أسبانيا ، جميل الصورة ، يدعى « فيدرو كالديرون » ، ويعرف باسم « بيروتو » .. وكان رئيس الحجاب فى بلاط البابا !**

ولا نعلم كيف ، ولا متى ، أصبح هذا الفتى عشيقا للوكريشيا ، وهل كان ذلك وهى بعد زوجة شرعية لجيوفانى سفورزا ، أو انه حدث فى أعقاب طلاقها ، عندما اتخذ البابا

رئيس حجابه حاملا لرسائله الى ابنته المعتكفة فى دير (سان سيكستوس) ، فاذا بها تجد بين ذراعيه الملجأ الذى تحتمى فيه من ذكرى فضيحتها ، ومن فزعها لمقتل أخيها ، وشكها وذعرها من أحب الناس اليها ؟ !

وما ان انقضى الصيف ، وبدأ تساقط أوراق الشجر مع طلائع الخريف ، **حتى وجدت ((لوكريشيا)) فى أحشائها طفلا من حبيبها الجديد ..** الذى لم تكن عائلتها تعتبره اكثر من خادم فى قصر أبيها !

***

وفى هذه الأثناء ، كانت أجراءات طلاق ((لوكريشيا)) من ((جيوفانى سفورزا)) سائرة فى مجراها ، فقرر البابا وكرادلته ـ وهم جميعا يعلمون كذب ما يقررون ـ أن عقد زواج ((لوكريشيا)) من زوجها السابق ، ((جاسبارو دى بروسيدا)) ـ كونت دى افيرزا ـ لم يفسخ أبدا ، **ولذلك فان زواجها اللاحق من ((جيوفانى سفورزا)) ، يعتبر ـ بطبيعة الحال ـ باطلا ولا أثر له ! ..** وفى ذات الوقت ، كان ((سيزار)) يبذل الهدايا ، ويجزل العطايا فى بلاط (نابولى) ، مصرحا بأنه ـ فى حالة تحلل أخته نهائيا من زواجها ـ فان قداسته لن يجد سرورا أعظم من أن يراها زوجة لأمير من (اراجون) ..

وما مضت بضعة أسابيع على مقتل ((جان)) ، حتى كان البابا قد نسى حزنه عليه ، واسترد مرحه وصفاء روحه اللذين كانا ملازمين له طول حياته . وعادت مسراته كلها لتتركز فى أبنائه الأحياء . ومع انه كان من الخير للوكريشيا ـ فى تلك الآونة ـ أن تبقى فى عزلتها فى ((سان سيكستوس)) الا أنها لم يسعها الا الخضوع لأمر أبيها ، حينما طلب اليها

أن تعود الى الفاتيكان ، لكى تؤدي شهادة علنية بصدد طلاقها .

ولعلها كانت محنة قاسية بالنسبة لامرأة تحمل منذ ستة أشهر جنينا فى أحشائها ، أن تقف أمام مجمع من السفراء الكرادلة ، كى تقرر أنها ((لاتزال عذراء)) ! ..

وبعد أسبوعين ، كتب ((كريستوفر بوجيو)) ـ سفير (بولونيا) ـ الى ماركيزة (مانتوا) يقول : ((ان رئيس حجاب البابا قد اختفى ، بعد أن اودع أبنة البابا طفلا)) ! .. وكتب برتشارد فى مذكراته ، بتاريخ ١٤ فبراير ١٤٩٨ : ((ان جثة رئيس حجاب البابا ـ فيدرو كاليدرون المعروف باسم ((بيروتو)) ـ وجدت غارقة فى نهر (التيبر) ، وقد ربط فى عنقها حجر)) .. كما كتب مارينو سانيدو فى مذكراته : **((ان بيروتو وجد غارقا فى النهر ، مع وصيفة من حاشية المادونا لوكريشيا ، اسمها بانتازيليا ، كانت معروفة بانها تتمتع بعطف البابا)) !**

الا أن ((باولو كابيللو)) ـ سفير (فينيسيا) ـ يروى قصة أخرى عن موت ((بيروتو)) : ((ان كاردينال فالنسيا ـ سيزار بورجيا ـ دخل فجأة على فيدرو كالديرون فى جناح البابا .. ودون أن يوجه اليه كلمة واحدة ، أستل سيفه ، وراح يطعنه به .. ففر ((فيدرو)) من أمامه مذعورا ، حتى وصل الى أقدام العرش البابوى ، حيث التمس حماية مولاه .. **ورغم أن البابا غطاه بعباءته ، فان الكردينال الثائر وجه اليه طعنة هائلة ، جعلت الدم يتناثر على ثياب البابا ووجهه)) ..**

واذ كانت ((لوكريشيا)) قد عادت الى قصرها ، يحيط بها جواسيس أبيها ، فلم يكن فى أمكانها ان تنقذ حبيبها .. وفى ذلك الوقت بالذات ، الذى لاقى ((بيروتو)) فيه حتفه من

اجل حبها كتب سـفير (مانتوا) : « ان المادونا لوكريشيا تبدى شـغفها بأحد المتقـدمين للزواج منـها ، وهو الفتى الجميل ، دوق جرافينا .. من فـروع الأسرة الحـاكمة فى نابولى » !

وبعد أسبوعين ، وصلت رسالة من (فيرارا) ،محررة فى ٨ مارس سنة ١٤٩٨ ، وقـد جاء فيها : **« ان ابنة البابا قد وضعت ولدا »** .. الا أن أسرة بورجيـا رات من الأحكم أن يظل امر هـذا الولد خفـيا ، فلم يبد له اثر الا بعـد ثلاث سـنوات ، حينما ظهـر فجأة فى حصن عائلة بورجيا طفل جـديد ، ما لبثت حقيقـة شـخصيته أن أثـارت الظنون والتخمينات !

***

وفى **الوقت** الذى عادت فيه « لوكريشيا » من « سـان سيكستوس » ، كان « سيزار » قد احتل فعـلا ـ فى قلب ابيه ـ المكان الذى كان من قبل وقفا على «جان» .. اذ ان ستار النسيان سرعان ما انسدل على هذا الولد الحبيب .. بل ان البابا اهمل ارملـة « جان » ، وطفله الصغير الذى تركه خلفه فى أسبانيا .. **وقد يكون بعض السبب فى ذلك ، راجعا الى أن الأميرة الأسبانية قـد تجاسرت على أن ترفع صوتها بتوجيه التهمة الى قاتل زوجها** .. وكان ذلك عندما احتجت احتجاجا رسـميا لدى الملك « فرديناند » ، حين صدر الأمر بتعيين كردينال فالنسيـا ـ سـيزار بورجيا ـ مديرا لأمـلاك ابن اخيه فى ايطاليا .. بل ان زوجة القتيل ما كانت لتلبى دعوة البابا ، لو انه دعاها للاقامة فى (روما) ، اذ كانت خليقة بأن تخاف من ان قاتل زوجـها ، قـد يعود فيقتل ابنها . ولذا فقد ظل دوق جانديا الصغير فى أسبانيا ،

ليكبر تحت وصاية رجال الدين هناك ، فى ذلك الجو الذى يشبه جو الأديرة .. بينما ظل دم أبيه فى روما دون ما ثأر ، ودون ان يثير أكثر من سحابة حزن عابرة ، فى قلب البابا ذى العواطف السريعة التبخر والزوال !

وهكذا أصبح لسيزار المكان الأول فى قلب أبيه .. **ومالبث البابا ان وقع – بالتدريج – تحت سطوة تأثيره ، وسقط فى حبائل خططه ومطامعه .** فما ان عاد « سيزار » من نابولى ، حتى بدأ فى العمل على تحقيق حلمه القديم ، بتغيير قلنسوة الكردينال ، برداء قائد جيش الكنيسة .

وكان «سيزار» قد سلك فى (نابولى) مسلكا لايتناسب مع منصبه – كنائب للبابا – ولا مع ظروف الحزن على أخيه.. **ولم يكن قد انقضى اسبوع على اقامته هناك ، حتى اصيب بمرض خبيث ، لايتأتى الا عن الافراط فى العلاقات مع الساقطات** ..وعندما قضت الظروف بأن يغادر فراش المرض مضطرا ، لينوب عن أبيه فى وضع التاج على رأس الملك « فيديريجو » – فى كاتدرائية (كابوا) – ظهر أمام الناس بوجه محتقن مشوه بالبثور ، وقدمين مرتعشتين ، فأثار الاشمئزاز فى بلاط (نابولى) ، لاسيما أن الملك كان يكره آل بورجيا ..

على ان سيزار كان قد أدرك أن « فيديريجو » لاسند له ، اذ تخلت أسبانيا عنه ، ولا ولد له يخلفه فى عرشه . فراوده الأمل فى أن يسعى «فيديريجو» الى التحالف مع آل بورجيا واكتساب صداقتهم ، مهما يتكبد – فى سبيل ذلك – من ثمن ..**وعلى هذا الأساس ، راح سيزار يحلم بمملكة ، وبزوجة ! !**

.. وفى خلال شهر واحد من عودته الى روما ، دار الحديث فعلا عن أن كردينال فالنسيا ، كان يعمل على أن يعطى قلنسوته القرمزية لأخيه الباقى على قيد الحياة ، وأن يأخذ لنفسه زوجة هذا الاخ .. « سانشيا » !

وفى يناير ، أصبحت الأشاعة اكثر توطدا .. وعرف أن أمير (سكويلاس) وأميرتها قد اصطلحا مع البابا ، واستردا حظوتهما لديه .. **وعادت ((سانشيا)) الى الفاتيكان ، بذات الشرط القديم ، وهو أن تعاود علاقتها مع ((سيزار)) !**

وهكذا كتب ((كريستوفر بوجيو)) فى رسالته الى مركيزة (مانتوا) ، يقول : ((.. ومهما يبد هذا بعيد الأحتمال ، فإن سموكم لن تلبثوا ان تسمعوا ـ عما قريب ـ نبأ طلاق الأميرة من زوجها ، مع أعطائه رتبة كردينال فالنسيا بدلا منها ..)) !!

الفصل الخامس عشر

• **اخذ** البابا ينساق لتأثير ((سيزار)) ، عقب مقتل دوق جانديا ، وبدات خططه وتدابيره كلها تتغير بما فرضه عليه ((سيزار)) من سلطان عجيب ، **حتى لقد أصبح يضحى بعلاقاته السياسية مع حلفائه ، ارضاء لمطامع ابنه التى لاتنتهى !**

ولا يملك المرء ـ ونحن لانجد بين يدينا الا لوحات قليلة تمثله ، وعبارات متناثرة عنه فى الرسائل والمذكرات التى بقيت من ذلك العهد ـ سوى ان يعجب لذلك السحر المنقطع النظير ، الذى كان لسيزار بورجيا على معاصريه ، وخاصة على أبيه .. فقد كانت علاقة البابا مع أبنه الأكبر هذا ، تختلف كل الأختلاف عن علاقته مع باقى ابنائه ..وحتى مع ((جان)) ـ ابان حياته ـ لم يكن البابا أكثر من والد عطوف متسامح .. أما مع ((سيزار)) فقد كان الأمر أعمق من ذلك بكثير ، **حتى أنه ـ فى بعض الأوقات ـ كان يبدو كأنه عاشق**

له ، وهو يتحدث عنه للسفراء الأجانب ، ويظهر كلفه به أمام الناس .. على انه كان شديدا فى معاملته إذا ما انفرد به ، وكأنما كان يلجأ الى الشدة خوفا من ثوراته المفاجئة . فقد كان يعلم أن المرض الذى انتاب سيزار فى (نابولى) ، كان يعاوده بين الحين والآخر ، فيدفع به الى نوبات هستيرية !

ومن الطريف ، ان أحدى التذاكر الطبية الأولى فى التاريخ لعلاج الزهرى ، كتبها ((فيدرو بنتور)) - وهو الطبيب الأسبانى الخاص للبابا - خصيصا ((لصاحب النيافة كاردينال فالنسيا ، سيزار بورجيا)) !

ولقد كان تحقيق الخطوة الاولى نحو مطامع ((سيزار)) - وهى التخلص من ردائه الكهنوتى ، والزواج من ((سانشيا)) .. زوجة اخيه - كفيلا بأن يؤدى الى احتكاك ، ان لم يكن الى شقاق ، مع اسبانيا .. فضلا عن ان البابا - برغم عدم اكتراثه المعهود بالرأى العام - كان يعلم أن البابوية لاتستطيع أن تواجه ، أو تحتمل ، فضيحة كردينال مسرح من منصبه ، يشتهى أن يتزوج زوجة اخيه .. ومهما تقدم ((سانشيا)) - زوجة ذلك الأخ - على الزعم بأن زوجها كان مصابا بالعنة ؛ وانه فاقد للقواه الجنسية ، فقد سبق لملك وكردينال أن شهدا على صحة زواجها به ، مما يجعل من المستحيل تكرار الوسيلة التى اتبعت مع ((جيوفانى سفورزا)) لتحقيق طلاقه من ((لوكريشيا)) .. ولم يكن ملك اسبانيا هو الوحيد الذى كان من المحتمل ان يعارض هذا الاجراء ؛ فقد كانت المعارضة مرتقبة من ملك (نابولى) كذلك ، لاسيما أنه كان - فى ذلك الوقت بالذات - **قد رفض فعلا ان يوافق على زواج ((لوكريشيا)) من شقيق ((سانشيا)) - الأمير ألفونسو -** مفضلا أن يعقد معاهدة مع عدوه القديم حاكم (ميلان) ، على أن يدخل فردا جديدا من آل بورجيا فى عائلته !

الا أن الظروف كانت فى مصلحة « سيزار » : اذ جاءت الأنباء فجأة بوفاة ملك فرنسا « شارل » الثامن ، وتنصيب الملك لويس الثانى عشر خلفا له ، مما أعطى وضعا جديدا للسياسة الأيطالية .. فقد أبدى الملك الجديد استعداده لاكتساب صداقة البابا ، اذ كان يعلم أن موافقته هى السبيل الوحيد لأن يتخلص من زوجته القبيحة الشكل « جان دى فالوا » ، وان يتزوج - بدلا منها - أرملة سلفه .. « آن دى بريتانى» ، التى كانت تمتلك بائنة عظيمة ، هى أبدع مقاطعات فرنسا - مقاطعة (بريتانى) - فضلا عما كانت عليه من فتنة وسحر !

وقد كان للملك هدف آخر ، هو أيقاع الفرقة بين البابا واسبانيا .. وفى هذا السبيل - ومن أجل تحقيق هذه المطامع - **كان من مصلحةلويس الثانى عشر أن يعقد معاهدة مع البابا ، وأن يحقق أحلام ((سيزار)) !** .. ومن الناحية الاخرى ، فان موت «شارل» الثامن ، جعل حليفته (اراجون) تتوجس خيفة من احتمالات المستقبل ، وخاصة بعد ما رأته من اتجاه خليفته الى محالفة البابا ..

***

وما أن بلغت انباء هذه المحالفة مسامع ملك نابولى ، حتى غير سلوكه مع البابا تمام التغيير . **وسرعان ما جاءت الأخبار بموافقته على زواج الامير الفونسو - ابن أخيه غير الشرعى ، وشقيق سانشيا - من ((لوكريشيا بورجيا)) !**

وللمرة الثانية ، يتقرر مصير « لوكريشيا » ، بفعل الظروف السياسية ..الا أنها - فى هذه المرة - كانت خليقة بأن تفرح ، لأن خطيبها كان **((أجمل شاب وقعت عليه العين فى روما)) !** .. وقد قيل انها ما رأته - حين وصوله الى

المدينة ـ حتى أحبته من أول نظرة..وان هى الا ثلاثة أيام ، حتى أجرى احتفال الزواج فى الجناح الخاص للبابا ، دون اى مظهر من مظاهــر الفخــامة والبذخ التى عرفت عن آل بورجيا .. وانما كان اجتماعا عائليا محضا ، سبقه حادث كاد يعكر الزواج.. **اذ ما كاد المدعوون يصلون ، حتى نشب عراك عنيف بين اتباع العريس وأتباع ((سيزار)) ..** وقد استل كل من الفريقين سيوفه لكى يثبت حقه فى الأسبقية .. وحينئذ لم يجد الحرس البابوى مفرا من التدخل ، كى يحسم النزاع .. وبذلك اتسع نطاق المعركة ، حتى شمل الاساقفة والكردينالات أنفسهم .. **بل ان البابا ذاته أصبح معرضا لأن تصيبه طعنة من طعنات السيوف المتضاربة !**

وكانت بداية لزواج ، من العسير ان يقال انها موفقة .. ومع ذلك ، فانها لم تترك اى تاثير فى آل بورجيا . فسريعا ما أبدى البابا عفوه عن المتعاركين من الجانبين .. وبطبيعته المرحة السمحة ، بدأ يشيع البهجة والفرح فى حفل الزاج .

وفى هذه المرة ، لم تبد ((لوكريشيا)) كفتاة طائشة ، وانما كعروس لامعة ، أو بالاحرى كزهرة يانعة .. وقد نظر اليها أبوها ـ وهو يتبادل النكات مع أسكانيو سفورزا ـ فأطلق ضحكة عاصفة ، وهو يقول : ((انه على الاقل لن يكون فى هذه المرة كلام عن الفسخ .. اذ يكفينا ان نلقى نظرة على العروسين الصغيرين ، كى نرى كم هما مشتاقان الى انتهاء المراسيم ، كى يدخلا فى غرفة زفافهما)) !.. فابتسم نيافة الكردينال ابتسامته الخبيثة الماكرة ، **اذ كان يعلم ان ابنة البابا لم تنتظر حتى يوم الزواج ، كى تعطى عريسها برهانا على حبها !**

وكانت لوكريشيا تبدو جميلة وساذجة ، كما كانت حين زفت فى المرة السابقة الى ((جيوفانى سفورزا)) .. ومهمــا تكن الذكريات التى طافت بها فى تلك الليلة ، وهى تزف الى

عريسـها الثانى ، فان هذه الذكريات لم تنعكس فى عينيها الصافيتين الساهمتين .. بل انها بدت وعريسها ــ فى تلك الليلة ــ يفيضان بالبشر والهناء . فما رآهما احد من الحاضرين الا عرف أن الحب يربط بينهما .

***

والآن ، وقد تزوجت « لوكريشيا » من اخى « سانشيا »، لم تعد لسيزار اية مصلحة فى ان يتخذ زوجة أخيه زوجة له، اذ انه ما تمناها الا من أجل مصالح سياسية. وبذلك ارتدت مطامعه نحو فرنسا ، واضعا عينه على ((**كارلوتا**)) أميرة (**نابولى**) ، **وهى الابنة غير الشرعية للملك ((فيدريجو)) ، من أميرة فرنسية تلقت تعليمها فى بلاط ((آن دى بريتانى))** .

وكانت المفاوضات مع الملك لويس قد بدأت فعلا ، ولم يعد نجاحها ضمانا لمستقبل « سيزار بورجيا » وحده ، وانما مستقبل اسرة (اراجون) كذلك !

واذ ذاك فقط جرؤ كردينال فالنسيا ــ سيزار بورجيا ــ على طرح موضوعه الخاص بالتحلل من صفته الكهنوتية أمام البابا والمجمع المقدس . ولما كان هذا الطلب خطيرا ووقحا فى ذات الوقت ، فقد تعمد نصف الكرادلة أن يتخلفوا عن حضور جلسة المجمع ، مفضلين أن يتغيبوا ، على أن يشتركوا فى هذه الفضيحة ..

وفى ذلة ومسكنة عجيبتين ، وقف الكردينال المتعجرف امام زملائه ــ الذين حضروا ــ يلتمس منهم الاستماع اليه ، ويتلو ــ بصوته الناعم الذى يأسر القلوب ــ خطابه الذى كان مكتوبا من قبل فى صحائف بين يديه ، **ذاكرا لهم ــ ومذكرا أباه على الخصوص ــ أنه لم يلبس رداء الكهنوت باختياره ، فما شعر نحوه يوما باية رغبة أو ميل**.. وقال لهم أن ضميره

لم يعد يترك له أى اختيار ، الا أن يلقى بنفسه تحت جناح رحمتهم ، وأن يتطلع الى عفوهم ، راجيا أن يحرروه من كهنوته ! .. ثم اكد لهم أنه ــ بمجرد أن يخلع قلنسوته ــ سيكرس نفسه لخدمة أيطاليا والكنيسة المقدسة ، وسيكون أول هدف له أن يعمل على التفاهم مع فرنسا ، التى كانت خصومتها سببا فى تعاستهم جميعا .. ولهذا الغرض ، اقترح أن يذهب بنفسه الى لويس الثانى عشر ، ليكون بمثابة رسول السلام !

واذ كان الكرادلة يعلمون أن الخطاب ــ الذى تلاه عليهم ــ انما كتبت عباراته بتوجيه من البابا ، وبناء على محض رغبته وموافقته ، فانهم وجدوا من الأحكم والأسلم لهم أن يذعنوا لمطالب ((سيزار)) .. بالرغم من أن البابا ــ بما جبل عليه من الدهاء ــ تظاهر بأن الأمر انما كان مفاجأة بالنسبة اليه ، فخاطب المجمع قائلا : « ان طلب الكردينال أخطر من أن يبت المجمع فيه قبل التروى والبحث .. »

ولم يغب عن فطنة « كاتانيو » سر هذا التروى المزعوم ، الذى نصح به البابا كرادلته . فكتب يقول : « ان كردينال فالنسيا لم يشأ أن يصدر القرار بأجابته الى طلبه ، قبل ان يتأكد من الثمن الذى سيتقاضاه من فرنسا نظير مسلكه ومسعاه .. **وكان أول قسط من أقساط هذا الثمن هو الدوقية والعروس))** !

وفعلا ، لم يكد مساء اليوم التالى يحين ، حتى وصل سفير فرنسا الى (سيفيتا فيشيا) ، حاملا المراسيم التى أهدى بمقتضاها صاحب الجلالة المسيحية الملك لويس الثانى عشر ، الى ابن عمه المحبوب « سيزار بورجيا » ، دوقية (فالنس) .. وهى مدينة جميلة واقعة على نهر الرون ، كانت تدر دخلا سنويا قيمته عشرة آلاف « سكودية » ..

وبهذا المرسوم ، لم يعد البابا فى حاجة الى التروى ، فلم تنقض بضعة أيام ، حتى كان كردينال فالنسيا قد تحرر من قيود الكهنوت ..

الفصل السادس عشر

• **لم يكن** البابا **يشعر** — فى سويداء قلبه — بأنه سعيد بالمعاهدة الفرنسية ، فمهما تكن المشاحنات التى وقعت بينه وبين ملك أسبانيا ، ومهما تكن الكلمات الغامضة التى تبودلت بينهما ، فإن البابا بورجيا كان يشعر فى قرارة نفسه أنه — أول كل شىء ، وقبل كل شىء — مواطن أسبانى ، وأن مسقط رأسه فالنسيا .. **ومن ثم فإن جوانحه لم تكن لتنطوى الا على الكراهية وعدم الثقة بالفرنسيين والأيطاليين معا !**

ومع أنه كان — فى دخيلة نفسه — ينظر الى رحلة سيزار المقترحة الى فرنسا ، بعين الريبة والشك ، فانه لم ينفك عن اسماع كرادلته عبارات الأطراء التى راح يضفيها على أبنه ، مبالغا فى وصف قدرته وحذقه وحنكته .. على انه لم يتمالك ان يشعر بالقلق ، عندما قال له الكردينال «اسكانيو» يوما ، وقد ضاق بتفاخر البابا بما ابداه ملك فرنسا من اكرام لسيزار : « خذ حذرك ياصاحب القداسة .. فمع أن ابنك رجل بارع فى المفاوضة ، وطويل الباع فى السياسة ، الا ان الملك لم يستدعه ليكون قريبا منه ، الا لأنه قليل الثقة فيك !.. **وقد تظن قداستك ان الملك سيكون اداتك فى تنفيذ خططك .. ولكن حذار ان لاتستطيع وابنك ان تبلغا ارتفاعا شاهقا .. واذا وقعتما ، فلن يتقدم الى نجدتكما أنسان ! »**

هكذا تكلم كاردينال (ميلان) الماكر ، وكانت كلماته كسهام

مسمومة أصابت البابا فى جنبه ، وأرقته ليال طويلة .. وضاعف من قلقه ان « جيليانو ديللا روفيرى » ـ منافسه القديم على الكرسى البابوى ـ ما لبث أن تقدم الصفوف الى جبهة الميدان السياسى ، باعتباره الوسيط الأول فى المفاوضات بين الملك لويس وآل بورجيا .. وبهذا واتته الفرصة كى يظهر من جديد ، وأن يستعيد صلته المقطوعة بالبابا ..

ومهما تكن هواجس البابا وارتيابه فى حكمة هذه السياسة التى وجد نفسه مسوقا اليها ، فقد افلح « سيزار » فى السيطرة عليه ، حتى لقد أصبح مستعدا لأن ينفق المبالغ الخيالية للتاثير فى ملك فرنسا . **وعلى قدر ما كان يفخر فى الماضى بحكمته ورحمته فى حكم دولته ، أصبح يلجأ اليوم الى أشد الوسائل خزيا وعارا وجورا لجمع المال اللازم للاغداق على سيزار فى رحلته !**

أما عريس المستقبل ـ سيزار ـ فقد سهرت (روما) كلها الليالى ، كى تعد له اللباس الغالى ، ليبدو أمام العالم بالمظهر الذى يناسب أصله الكريم ، ومركزه العالى .. وكان بقية آل بورجيا ينظرون ويعجبون .. حتى « لوكريشيا » ـ التى كانت تباع وتشترى بالمال ـ كان الأسف يملأ جوانحها ، وهى ترى أبدع المجوهرات وانفسها تخرج من الخزانة البابوية كى تمنح لعروس « سيزار » .. **العروس التى كانت غير راغبة فى ((العريس)) ، اذ كان ((ألفونسو)) و ((سانشيا)) لايفتآن يذكران أمامها أن عمهما ـ ملك نابولى ـ ما كان ليوافق على أن تتزوج ((كارلوتا)) من أحد أفراد بورجيا !** .. بل لقد كان لها من الذكاء ما اوحى اليها بأن اباها نفسه كان فى شك من اتمام هذا الزواج !

***

وفى أول أكتوبر سنة ١٤٩٨ ، ابتدأ الموكب الفخم رحلته

من روما . وعلى رأسه « سيزار بورجيا » ، كاردينال فالنسيا باعتبار ما كان ، ودوق (فالنس) باعتبار ما هو كائن ، وقد انتصب على صهوة جواده الأبيض الناصع .. وكان رحيله بداية عهد هدوء وسلام لأولئك الذين تركهم خلفه .. وما من أحد أدرك هذه الحقيقة ولمسها ، أكثر من اخته « لوكريشيا » ، التى كانت النوافذ المغلقة فى قصر اخيها تعنى – بالنسبة اليها – عهدا جديدا من الحرية والانطلاق من أسر عينيه اللتين كانتا لاتفتآن تراقبانها وتتعقبانها وتحاسبانها أعسر حساب .. **وقد شعرت للمرة الأولى بالراحة – بينها وبين نفسها – لابتعاده عنها .. لا لأنها لم تعد تحبه ، وأنما لأنها تحررت من ربقة سيطرته !**

وقد جاء الدور الآن على «سانشيا» لتتألم وتنهش الغيرة قلبها ، وترعى نار الحقد فى أحشائها . فقد طعنت فى كبريائها ، اذ هجرها حبيبها ، كى يرتمى فى احضان ابنة عمها « كارلوتا » .. وكان هذا الألم شؤما على « لوكريشيا » ، وخطرا يهدد سعادتها ويهدم حياتها . اذ كانت « سانشيا » من ذلك النوع من النساء اللاتى خلقن ليجلبن الشرور ويسببن المتاعب ، ويضربن – فى غير هوادة ولا رحمة – اذا ثار فيهن الوحش الرابض فى أعماقهن . وها هو ذا الوقت قد جاء لهذا الوحش أن يظهر ، وأن يزار ! .. **وكان سلاحها الذى اختارته كى تضرب به ضربتها ، هو أخوها «ألفونسو»** .. فما أسرع ما وجد هذا الأمير الصغير الساذج نفسه ، وقد انزلقت قدماه – واخته من خلفه تدفعه – فى مؤامرات السياسة ودسائسها ..

وفى هذه الأثناء ، كانت سفينة فرنسية تمخر عباب البحر ، حاملة على ظهرها « سيزار بورجيا » وحاشيته الضخمة الفخمة .. وهنالك فى مرسيليا ، وضع سيزار

قدميه لأول مرة على أرض فرنسا .. وفى القصر البابوى فى (أفينيون) ، كان فى استقباله « جيليانو ديللا روفيرى » : وهكذا اجتمع الرجلان الطموحان .. وقد اصبح كل منهما فى حاجة الى الآخر !

***

واذ كان الموكب يجتاز (بروفانس) ، عرض ابن البابا بذخ أيطاليا واسبانيا أمام أعين الفرنسيين التى امتلأت بالدهشة والذهول .. وقد مال بعضهم على البعض الآخر يتهامسون متسائلين : « هل من أجل هذا الاسراف أعطى الناس أموالهم للكهنة ، وباعوا أمتعتهم بالثمن البخس ، ليسددوا الضرائب ؟ .. هل تقدم الهبات للكنيسة لتمكين هذا الأسبانى الأحمر الشعر ، من أن يمتطى الجياد المطهمة بالفضة ، ويكسو أحقر خدمه بالثياب المطرزة بالذهب ؟ »

كانت رحلة سيزار ـ خلال فرنسا ـ تثير العجب فى كل مكان يمر به موكبه .. ولكنه عجب من ذلك النوع الذى يثيره ملعب متنقل ، لا موكب ملكى .. كان يسير ـ فى هالة من بريق الجواهر واللآلىء ـ بين صفين من الوصفاء اللابسين اردية حمراء وزرقاء .. وحاملو الطبول يدقون طبولهم مع دوى الأبواق ..

وما كادت انباء وصوله الى فرنسا تبلغ بلاطات اوربا ، حتى بادر خمسة ملوك ـ منهم هنرى السابع ملك انجلترا ـ الى الاحتجاج لدى ملك فرنسا على قسر أميرة ملكية على الزواج من محدث نعمة من آل بورجيا ! .. ومع أن الملك لويس أحسن وفادة سيزار باعتباره سفير الفاتيكان ، الذى جاء معه بمرسوم يحرر الملك من زوجته الدميمة ، التى كان يكرهها ،ويتيح له الزواج من أرملة سلفه الجميلة « آن دى

بريتانى » ، ويجعل منها — للمرة الثانية — ملكة فرنسا .
الا أنه لم يحاول أن يبذل أى جهود يقنع به الملك ((فيديريجو)) بأن يوافق على زواج أبنته ((كارلوتا)) من الابن غير الشرعى للبابا !

وهكذا وجد سيزار نفسه أضحوكة البلاط الفرنسى ، وقد انهار قصر آماله ، وطعن فى صميم كبريائه واعتداده بمركزه وماله وجماله. وقد جاءت الضربة القاسية لسيزار . بعد ذلك ببضعة اشهر ، **حين أذيع أن الملك ((لويس)) قد تفضل بالموافقة على زواج الاميرة ((كارلوتا)) من أحد بارونات بريتانيا ..** وكان يوما مشئوما لأسرة (اراجون) ، يوم اكتشف سيزار أن ملك (نابولى) فضل أن يعطى أبنته لفرنسى خامل ، على أن يعطيها لواحد من آل بورجيا .

وبينما حقق الملك لويس أمله ، وتزوج أرملة سلفه ، بقى « سيزار » بدون زوجة . وقد انتشرت الشائعات فى روما ، وبدأ الناس يجدون الجراة على أن يرددوا فى حضور «لوكريشيا» ، ما لم يكونوا يجرؤون على قوله أمام أبيها .. حتى زوجها وزوجة أخيها لم يتورعا عن أبداء سرورهما لخيبة سيزار .

ولأول مرة ، عرفت ((لوكريشيا)) أن ثمة عائلات فى أوروبا ترفض أن تدنس دماءها بدماء أبن غير شرعى للبابا ! .. وبرغم أن ملك فرنسا قد أكد لسيزار أن له أن يختار من يشاء من أميرات فرنسا ، فأن الأميرات أنفسهن — ومن ورائهن آباؤهن — رفضن كل الرفض أن تكون احداهن زوجة لأبن بورجيا !

***

وكانت لوكريشيا — فى تلك الأثناء — غارقة فى سعادتها مع أميرها الجميل ، وقد اوشكت أن تضع جنينها منه

وتصبح أما .. ولما كان أبوها قد يئس من أن يوفق «سيزار» في أعطائه حفيدا ملكيا ، فقد وضع آماله في الطفل الذي كان ينتظره من « لوكريشيا » ، وراح يضع الخطط لمستقبله .. ولكن ، واأسفاه ! .. **فبينما كانت « لوكريشيا » تلهو وتمرح مع أحدى صاحباتها في حديقة كردينال لوبيه ، اذ زلقت قدمها فجأة ، ووقعت على الأرض الصلبة .. وفي تلك الليلة ولدت طفلا ميتا ..**

وللمرة الثانية ، بدا البابا أمام حاشيته حزينا لاسبيل الى عزائه . الا أن الحزن لدى آل بورجيا لم يكن يستمر طويلا ، فما انقضى أسبوع واحد بعد هذا الحادث ، حتى ظهر البابا مع أبنته — خلال احتفالات الكرنفال — يطلان من شرفة كنيسة «سان أنجيلو» على الموكب التقليدي للمساخر ، وهو يعبر الجسر . وكانا يبديان السرور والبهجة بما يشهدان .. وكان من المألوف لدى الرومانيين — في ذلك الزمان — أن يعرضوا حفلاتهم التنكرية ، ومظاهر فحشهم ودعارتهم ، تحت عيني الأب المقدس .. **كما كان مألوفا لديهم ان يروا البابا بورجيا وقد راح يدعو أبنته ويشجعها على أن تساهم في التمتع بتلك المناظر الشائنة ، التي كان أغلب الآباء يفضلون أن يمنعوا عنها بناتهم .**

وكان مع البابا وابنته في الشرفة — أثناء تلك الاحتفالات — سكرتير قداسته ، « بارتولوميو فلوريو » . وقد غضب عليه البابا بعد ذلك ببضعة أيام ، واعتقله ، وقتله .. وكانت التهمة التي وجهها اليه ، تبريرا لهذا المصير البشع ، أنه اقترف تزويرا في مرسوم بابوي .. **الا أن رجال الحاشية تهامسوا فيما بينهم بأن السبب الحقيقي لنقمته عليه ، هو أن السكرتير لم يعط مولاه نصيبا في الرشوة التي كان يتقاضاها من أصحاب الحاجات لقضاء حاجاتهم !**

وفى ذات الاسبوع ، أصدر البابا أمرا بالقبض على « فيدرو داراندا » ــ أسقف (كالاهورا) ، والمدير السابق للقصر البابوى ــ وألقاه فى السجن بتهمة كاذبة ، هى الانحراف عن العقيدة الكاثوليكية .. وقد اتضحت الغاية من هذا التصرف الظالم ، حين قرر البابا مصادرة أموال السجين والاستيلاء على مخصصاته ، كى يصرف منها على رحلة سيزار ..

وأمام هذه السياسة الجديدة ، التى اتبعها البابا لابتزاز المال بكل الوسائل ، بدأ الاساقفة الاثرياء يتغيبون عن روما، كى يتجنبوا تعريض أنفسهم لشراهته وجشعه .. أما عامة الشعب ، فكان البابا بورجيا يبدو لهم فى صورة شخص محسن كريم ، وأب لكل الجنس البشرى .. **حتى لقد كانوا يلتمسون التعليل لما كانوا يرونه من خطايا تصدر عنه ، فيوحون الى أنفسهم بأن وراءها حكمة ، فما كان قداسته ــ وهو الخبير الواسع الادراك ــ ليتنزل الى ارتكاب ما يعرف تماما ان من الخطأ ارتكابه !**

ولقد كان البابا ــ فى اسبوع الكرنفال ــ يتصرف كما لو ان قلبه لم يكن ينطوى على هم على الاطلاق ، برغم ان القلق والخوف قد اجتمعا ليسلباه النوم .. اذ كانت اسبانيا والبرتغال قد أرسلتا سفيراهما للاحتجاج على دخوله فى تحالف مع فرنسا . ولم يتردد السفيران فى استعمال العبارات العنيفة ، وهما يوجهان كلامهما اليه . وأجابهما هو بالمثل ، **حتى لقد بلغ به الأمر الى حد توجيه القذف الصريح الشائن فى حق الملكة « ايزابيلا » وتجريح سمعتها ..** بل لقد هاج هائجه ، حتى هدد السفيرين بالقائهما فى نهر التيبر ، جزاء وقاحتهما .. وقد بلغت الاهانات المتبادلة أقصى مداها ، حين هاجمه سفير اسبانيا مسفها سياسته، قائلا له : «سيأتى اليوم الذى تصبح فيه عبدا ذليلا لفرنسا ، وستكون سعيدا

اذا أفلحت فى العثور على قارب صغير ، تفر فيه الى أسبانيا ! »

الا أنه فى ذلك الوقت العصيب ، الذى سقطت فيه هيبة البابوية الى أسفل درك ، وأطلق فيه البابا العنان لعداوته وكراهيته نحو فرنسا وأسبانيا على السواء ، **جاءت الانباء بأن « سيزار بورجيا » وجد له زوجة .. فقد بر « لويس » بوعده ، واخطر ابن البابا بأنه موافق على زواجه من ابنة عمه « شارلوت دالبير » ، ابنة ملك (نافار) ..** وكانت الرشوة قد نجحت أخيرا فى اقناع صاحب الجلالة « أليين دالبير » ، بأن يعطى ابنته ـ ذات الستة عشر ربيعا ـ الى الكردينال السابق !

وحين دوى رنين أجراس الزواج فى (بالواز) فى مايو سنة ١٤٩٩ ، كان هذا الرنين ذاته ، ايذانا بانقراض سلالة (اراجون) فى نابولى ، ونهاية سلام « لوكريشيا » !

الفصل السابع عشر

• **لم يطل** بلوكريشيا الوقت لكى تتحقق من ان زواج أخيها انما كان تهديدا لسعادتها .. ولم يحدث ان انهارت قواها فى الرياء والنفاق والمواربة ، كما حدث حينما كانت جالسة فى مكانها المعتاد على درجات العرش البابوى ، وسمعت آخر الاخبار عن نصر سيزار ، يرويها رسول جاء من (بالوزا) .. فقد كانت كل كلمة قالها الرسول تهديدا لمستقبل زوجها .. **ذلك لان « شارلوت دالبير » كانت أبرع جمالا من « كارلوتا دارجون » ، ولكن « سيزار » لم يكن لينسى الاهانة التى لحقته من ملك نابولى ..** ومهما يكن

افتتانه بعروسه الصبية ، فقد كانت « لوكريشيا » على تمام الفهم لطبع أخيها ، لدرجة أدركت معها أنه ما كان ليتورع — حتى فى حفل زواجه — عن ان يلاحق « كارلوتا » ببصره ، وهى ترقص مع زوجها البارون البريتانى !

أما البابا ، فقد بدا سعيدا جدا وهو يقرأ على مسامع حاشيته . الخطاب الذى أرسله اليه « سيزار » ، ساردا فيه كل التفصيلات الدقيقة ، لما حدث بينه وبين عروسه فى ليلة الزفاف !.. وكان قداسته يهدر بالضحك أثناءالوليمة التى أقامها لكرادلته ، ودعا اليها الملحق الذى بعث معه الملك لويس بالتهنئة .. وقد أصبحت البابوية — بذلك الزواج — مرتبطة بمعاهدة مع فرنسا ، ومعتبرة حليفة لها .. فى ذات الوقت الذى لم يحاول فيه « لويس » — ملك فرنسا — أن يخفى مطامعه ونواياه نحو نابولى وميلان ، بل راح يعد العدة فعلا لغزوهما .. **وكانت هذه هى الكارثة التى تهدد اسرة (اراجون) ، وبالتالى تهدد سعادة ((لوكريشيا)) !**

وقد كان .. فما أقبل شهر يوليو ، حتى كانت طلائع الفرسان الفرنسيين قد اجتازت الألب .. وقد تطلع « لودفيكو سفورزا » — أمير (ميلان) — حواليه ، فلم يجد فى ايطاليا كلها صديقا واحدا يقف الى جانبه .. بل ان حليفته الوحيدة (نابولى) آثرت الوقوف على الحياد ، اذ راودها بصيص من الامل فى أن يكف « لويس » يده عنها ، وأن يكتفى بغزو (ميلان) .. **أما الفاتيكان ، فكان الكردينال ((أسكانيو)) قد استنفد كل مجهود وحيلة ، دون أن يفلح فى اقناع البابا وتحذيره من ربط نفسه بعجلة فرنسا ،** وقد تحقق تمام التحقق من أن قداسته — على العكس — مستعد لأن « يبيع مفاتيح سان بيتر » ، فى سبيل الحصول على تاج مملكة لابنه .. وعلى ذلك فلم يجد الكردينال

مندوحة عن ان يسلم البابا قصوره وقلاعه ، وأن يرحل عن روما ، كي يقوم بالدفاع ـ مع باقى عائلته ـ عن (ميلان) .

وبرحيله ، **فقد ألفونسو ـ زوج لوكريشيا ـ صديقه الوحيد وناصحه الامين** ، فأصبح ذلك الامير الشاب مهددا بأفدح الاخطار ، لا سيما بعد أن اجترأ عمه ملك نابولى على اهانة آل بورجيا على مسامع أوروبا كلها .. ولم ينقض أسبوع واحد بعد رحيل « اسكانيو » ، حتى استيقظت « اوكريشيا » من نومها ـ ذات صباح ـ لتسمع أن زوجها قد لاذ بالفرار ، تحت جنح الظلام !

وفى ٤ أغسطس ، كتب سفير (فينيسيا) الى مولاته : « لقد هرب دوق بيسيجلى ـ زوج مادونا لوكريشيا ـ سرا من المدينة ، ولجأ لحماية آل كولونى فى (جنيتسانو) ، تاركا زوجته الحامل فى شهرها السادس .. وقد غرقت فى الدموع » !

***

ولأول مرة عجز البابا عن التخفيف من آلام لوكريشيا ، وعن تسرية أحزانها بهدايا الحرير واللؤلؤ ، حتى لقد رآها تذبل وتخور قواها أمام عينيه .. فما عادت ـ كعادتها ـ تبذل جهدها فى ان تدخل البهجة الى قلبه بنكاتها اللاذعة ، وفكاهاتها البارعة ، وأغنياتها الفالنسية الناعمة الناعسة .. وكأنما أخذ أميرها الجميل معه روحها ، وسرق مرحها ، فلم تعد تفكر الا فيه ، أو تشعر الا بغيبته .. حتى لقد خشى أبوها ان تفكر فى ان تهرب هى الاخرى لتلحق به .. **وحين وقع فى يد جواسيسه خطاب من « الفونسو » ، يرجوها فيه أن ترحل اليه فى (نابولى) ، وضع قداسته اشد الرقابة على ابنته !**

وهكذا رأت « لوكريشيا » أباها ـ للمرة الأولى ـ يقسو عليها ـ بل لقد خيل اليها أنه لم يعد حتى يحبها ، اذ لم يعد فى قدرتها ان تفسر ـ بغير ذلك ـ رفضه ان يتيح لها الحظ الذى أتاحه لسانشيا ، حين أرسلها الى (نابولى) .. وان كانت تعلم ان تصرفه مع « سانشيا » : جاء وليدا لغضبه عليها ، ونقمته على عمها ، الذى وافق على أن يبسط حمايته على « ألفونسو » بعد هربه من الفاتيكان .. وقد أعلن نقمته حين اصر على ان يبقى « جوفريه » ـ زوج سانشيا ـ فى روما ليكون فى صحبة أخته « لوكريشيا » .

واذ ازداد شعور البابا برغبة ابنته فى الفرار الى زوجها ، تفتق دهاؤه عن وسيلة يمنعها بها عن سلوك هذا السبيل .. **اذ اسند اليها منصب حاكم (سبوليتو) ، حتى يجعلها بمنأى عن مؤامرات نابولى !** .. وما كان من المستغرب على طبيعة البابا بورجيا ، ان يتجاهل ما كان هنالك من غرابة واضحة ، وفاضحة ، فى ان يسند الى فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها منصبا هو فى الحقيقة من اختصاصات كردينال !

وفى صبيحة يوم ٨ أغسطس سنة ١٤٩٩ ، تجمعت الجماهير باكرا فى ميدان « سان بيتر » لتشاهد « لوكريشيا » ـ دوقة (بيسيجلى) ـ وأخاها « جوفريه » ، امير (سكويلاس)، يبدآن رحلتهما .. فى حين وقف البابا كالمعتاد فى شرفته ليمنح بركته الابوية ، او بالاحرى بركته الرسمية ، لحاكمة (سبوليتو) ، وهى تتأهب للاضطلاع بواجبات منصبها الجديد !

ولقد تم اختيار كل فرد ـ من الافراد الذين رافقوا « لوكريشيا » ـ بطريقة تجعلهم سجانين يراقبونها ويتجسسون عليها ، وليسوا مجرد حاشية !.. وعلى رأس

موكب من القساوسة والنبلاء ، يتبعهم خمسون جوادا تحمل الامتعة ، بدأت « لوكريشيا » رحلتها ..

وبعد خمسة أيام ، بدت لها قلعة (سبوليتو) ، خلال أشجار الدردار المشرفة على (المونتيليكو) .. الا أن المروج الفيحاء التى كانت تنبسط الى مدى البصر ــ فى حضن وادى (كليتمنو) ــ والمنظر الخلاب الذى كان ينبع من نقطة التقاء الارض بالسماء ــ على مشارف (امبريان) ــ وعمق الهواء والصفاء الذى يرين على تلك البقاع كلها .. كل هــذه لم تستطع ان تمنع « لوكريشيا » من الشعور بأنها أتت لتكون سجينة فى هذا المكان !.. ولكن البابا ــ فى الواقع ــ لم يكن أقل من ابنته لهفة واشتياقا الى وضع حد لذلك الموقف المريك لهما كليهمــا .. فما كاد ينقضى شهر أغسطس ، حتى كان « جوان سير فيللون » ــ رئيس الحرس البابوى ــ فى طريقه الى (نابولى) ، كى يؤكد للملك الغاضب المرتاب ، مودة البابا وحسن مقصده ، فضلا عن حياده التام فيما يتعلق بالشؤون الايطالية كلها ..

وهكذا ، ما أتمت « لوكريشيا » شهرا واحدا فى (سبوليتو)، حتى لحق بها زوجها .. وما لبثت قلعة (جبيل داليرنوز) الكئيبة ، أن رددت ضــحكات العروسين الســعيدين .. الا أن أيام السعادة لم يكن مقدرا لها أن تستمر طويلا ، اذ وصل ــ فى ٢٥ سبتمبر ــ رسول من البابا يحمل دعوة منه الى « لوكريشيا » وزوجها وأخيهــا الى اجتمــاع فى قلعة (نيبى) .

***

وفى فرنســا ، كانت أيام الســعادة ــ التى نعمت بهــا « شــارلوت داليير » ــ تقرب كذلك من نهايتهــا ، برغم ان

((سيزار بورجيا))
من ((اسكتشات))
رسمها له ((ليوناردو
دافنشى))

حياتها الزوجية مع « سيزار » ، لم تكن قد تجاوزت ــ فى ذلك الحين ــ أربعة أشهر .. ومن الممكن ان يقال ان «سيزار» أحب زوجته ، بقدر ما كان يملك ان يستشعر الحب نحو امرأة أخرى غير أمه ، او اخته !.. **بل أنه لم يحبها فحسب ، وانما الأدعى الى العجب أنه وثق فيها كذلك .. ولا أدل على ذلك من أنه ــ حين رحل الى ايطاليا ــ عهد اليها وحدها بادارة أملاكه فى فرنسا !**

ذلك ان سيزار انطلق مع لويس الثانى عشر ــ حين قام على رأس جيشه لغزو الممالك الايطالية ــ ليكون مصاحبا له فى دخوله المظفر الى (لومبارديا) ، واضعا نصب عينيه مطمعه الذى لم يفتأ يحلم به ، وهو ان يضع تاج مملكة على رأسه .. **وفى سبيل هذا التاج ، كان مستعدا لان يهجر اجمل الزوجات، مهما يضمر لها من حب واعزاز ..**

وفتحت (لومبارديا) للفرنسيين أبوابها ، وسقطت (كريمونا) فى يد الفينيسيين ، الذين سارعوا الى احتلالها

كى تكون عربونا لتحالفهم مع جيوش الفاتحين .. وبادرت (فلورنسا) ، و (سيينا) ، و (لوكشا) الى الانضمام الى الغزاة المنتصرين .. وفى ٦ اكتوبر سنة ١٤٩٩ ، دخل لويس الثانى عشر الى (ميلان) ، لا كفاتح ، وانما باعتباره الملك الشرعى لها بالوراثة عن جدته «فالنتينا فيسكونتى» ..

وفى (نيبى) ، أعلن البابا سقوط (ميلان) .. وتبعا لذلك أصدر أمره بتجريد « أسكانيو سفورزا » من تملك المدينة والقلعة ـ اللتين سبق أن وهبه اياهما نظير خدماته ـ **وسلمهما لابنته لتكونا ملكا لها ، وميراثا شرعيا لورثتها من بعدها ..** وبذلك أصبحت « لوكريشيا » حاكمة ، ليس فقط لمقاطعة (سبوليتو) ، وانما كذلك للاراضى والبارونيات الواسعة ، التى تشمل أسقفية ، وقلعة قائمة على الطريق الاستراتيجى بين (روما) و(فيتربو) .. وكان هذا التصرف من البابا بمثابة انذار للبارونات المجاورين .. **فاذا كان قد منح ابنته هذه الأراضى كلها ، فكم يكون ، وعند أى حد يمتد سخاؤه مع ابنه ؟!**

ولقد رسمت حدود هذا السخاء ، فى الاجتماع العائلى الذى عقد فى (نيبى) ، واستدعى البابا اليه ابنته «لوكريشيا» واخاها وزوجها من (سبوليتو) ، كما حضر اليه « سيزار » من (ميلان) .. **ففى هذا الاجتماع ، تركزت كل القوى الزمنية للبابوية فى يد ((سيزار بورجيا))** ، وباعتباره ضابطا كبيرا فى جيش فرنسا ، وقائدا لجيوش الفاتيكان ، وحاميا للكنيسة ، اخذ اهبته لأن يفتح لنفسه مملكة ، ويضع فوق رأسه تاجا !

الفصل الثامن عشر

• **لم تكد** « لوكريشيا » تعود الى روما ، بعد حضورها الاجتماع العائلى فى (نيبى) ، حتى بدأت تأخذ مركزا ايجابيا فى الشئون السياسية ، مضادا ومناهضا ـ بصورة علنية صريحة ـ للخطة التى سار عليها « سيزار » .. فقد كانت ـ حتى ذلك الحين ـ تبدو غافلة عن نشاط العناصر المعادية للتحالف مع فرنسا ، **وعن أن هذه العناصر قد جعلت حاشيتها مركزا لدسائسها ومؤامراتها** . الا أنها فى (نيبى) ، تحققت من مدى الخطر الذى أصبحت البابوية مستهدفة له ، نتيجة ارتباطها بالمحالفة الفرنسية ، واتضح لها ما كان يترتب على ذلك من خطر يهدد شخصها وشخص زوجها معا .. **فرأت أن الوقت قد حان لكى تبادر الى الدفاع عن مصلحتها وسعادتها ، والا .. ذهبت ضحية مطامع سيزار !**

ولقد اعطاها حبها لألفونسو ، وجزعها من أن تفقده ، قوة فوق قوتها ، وضاعف من عزمها ومقدرتها .. وفى تلك الأسابيع الأخيرة للحمل ، التى تخلد فيها المرأة بغريزتها للراحة والهدوء ، استمرت هى فى زياراتها اليومية للفاتيكان، باذلة كل جهدها فى تملق أبيها ، واسترضائه ، واستثارة زهوه ونزواته باغرائه بأفتن واصبى وصيفاتها . حتى أمكنها آخر الأمر ان تستميله اليها ، وتكسبه لجانبها ، الى درجة استرعت انظار السفراء ، فكتب احدهم يقول ان **« دونا لوكريشيا لم تكن فى وقت من الأوقات حائزة للحظوة لدى أبيها ، كما هى الآن » !**

، بل أن البابا ما لبث كذلك أن استدعى « سانشيا » من نابولى ، اذ كان يشعر ـ فى أعماق قلبه ـ بميل نحو اصهاره

من آل اراجون ، يفوق ميله الى الفرنسيين ، فآثر أن يهرب من مشاكله السياسية الى ذلك الجو الأسبانى ..

وأخيرا ، فقد كان من أقوى عوامل ازدياد حظوة «لوكريشيا» لدى أبيها ، أنها — فى أول نوفمبر من ذلك العام — **وضعت ولدا اسمته «رودريجو» ، تيمنا باسم جده ، فكاد البابا أن يجن من الفرح ! .. وعن طريق «رودريجو» الابن ، داعب الأمل «لوكريشيا» فى أن تنقذ زوجها ، وأن تحمى سلالة «اراجون» !**

وكان البابا قد فرض — عقب عودته من (نيبى) — عقوبة الحرمان على حكام ايمولا ، وفورلى ، وبيزارو ، وفانيزا ، وريمينى ، لاغفالهم دفع المخصصات للابروشية الرسولية ، فسقط حقهم فى الحكم كتابعين للكنيسة .. وفى الوقت ذاته، سارت جيوش البابا لمهاجمة القلاع التابعة لنابولى .. وهكذا ولد «رودريجو» الصغير ، على وقع أقدام الجنود وهم يعبرون ميدان (سان بيتر) ، فى طريقهم لخوض حرب ضد حلفاء اسرته !

وما كاد يمضى اسبوع على عماد «رودريجو» ، حتى عاد «سيزار» الى (روما) فى زيارة سرية ، فكانت عودته عامل نكد وعنصر كمد فى عائلة بورجيا .. اذ كان منظر البابا وهو يداعب حفيده الطفل ، وسعادة «لوكريشيا» وهى تلقى برأسها على صدر زوجها الفاتن ، بمثابة وقود اجج الحقد والحسد فى قلب سيزار ، **الذى نظر الى «لوكريشيا» — لأول مرة — كخصم له ، اذ اكتشف ما ينطوى عليه سلوكها مع أبيها من خبث وخديعة** ، حتى انها نجحت فى أن تكون الحظوة لدى البابا من نصيب حلفائها واصدقائها وحدهم ، وحتى انها حملت قداسته على أن يهب ابنها كل الاملاك التى صادرها من امراء نابولى !

***

والعجيب ان « لوكريشيا » خلبت أخاها ـ وهى تناصبه العداء ـ اكثر مما خلبته ايام ان كانت تبدى له الاستسلام والخضوع .. اذ كانت الغيرة عنصرا جوهريا فى تكوين عاطفته ، وحافزا قويا فى توجيه شعوره ونفسيته .. ولذلك فقد ركز كل كراهيته على زوجها « ألفونسو » ، وعلى المحيطين به من اهل (نابولى) ، الذين كانوا يعلنون صراحة عدم ثقتهم فى ((**الدوق فالنتينو**)) .. وهو اللقب الذى اتخذه « سيزار » لنفسه ، بعد ان انعم عليه ملك فرنسا بدوقية (فالنس) ..

ولقد كان لدى ((ألفونسو)) وحاشيته المبرر الكافى لعدم ثقتهم فى ((سيزار)) وخوفهم منه ، بعد ان تحقق لهم مقدار السهولة التى يتخلص بها من أعدائه : فلقد تحدث ضابط اسبانى ـ كان مرافقا للدوق فى فرنسا ـ عن الصدود الذى قوبل به « سيزار » فى البلاط الفرنسى ، فلم تلبث ان ظهرت جثة طافية على مياه (التيبر) .. وقبل ان تنقضى أسابيع طويلة على عماد « رودريجو » الصغير ، وجد « جوان سيرفيللون » ـ رئيس الحرس البابوى ـ مطعونا بخنجر خارج منزل ابن أخيه .. وكان كل ذنبه انه طلب العودة الى خدمة ملك نابولى ، فآثر آل بورجيا أن يدفن وفى صدره ما كان يعرف من أسرارهم !.. وكان « سيزار » خير مدبر لطريقة الخلاص .

وبينما راح البابا يتشاور مع كرادلته ، لتنظيم الاحتفالات التى كان من المزمع اقامتها ، لمناسبة اليوبيل الذهبى ـ فى عام ١٥٠٠ ـ كان السفراء والمبعوثون ونواب الملوك لدى البلاط البابوى ، **يتحدثون فيما بينهم عن حوادث الاختفاء**

الغامضة ، والوفيات المفاجئة ، لأولئك الذين جلبوا على أنفسهم سخط ((سيزار)) ، واستوجبوا نقمته عليهم ..
واذا كان آل بورجيا قد استعملوا السم كوسيلة صامتة وفعالة للتخلص من اعدائهم ، فقد كانت تلك عادة اكتسبوها من معاصريهم الايطاليين ، أكثر من أن يكونوا قد ورثوها عن اسلافهم الاسبانيين .

ثم جاءت ـ بعد ذلك ـ انباء محاولة جريئة لتسميم البابا .. وقد قيل أنها كانت بتحريض «كاترينا ريارو سفورزا» ، التى كانت مدينتاها (ايمولا) و (فورلى) فى راس قائمة الاملاك المزمع انتزاعها من حكامها ، وضمها الى أملاك البابوية ، وفقا لقرار الحرمان . فقدوصل ـ فى أواخرنوفمبر ـ مبعوثون من (فورلى) يسعون الى الصلح . الا أن سلوكهم المريب استرعى أنظار الحرس البابوى ، فقبض رجاله عليهم ، وأجروا التحقيق معهم . **وبعد كثير من المراوغة والانكار اعترفوا بأن الخطاب الذى كانوا يحملونه فى عصا مفرغة ـ وكانوا يعتزمون تقديمه الى البابا كالتماس من أهالى فورلى ـ انما كان فى الواقع مشبعا بسم قاتل !**

ولنا ان نتصور مقدار الفزع الذى انتاب دوائر الفاتيكان ، بعد اكتشاف تلك المؤامرة الخطيرة .. فبالرغم من ان السم كان سلاحا مشروعا فى المؤامرات السياسية ـ اذ ذاك ـ الا أن أحدا لم يكن ليتصور أن يخطر ببال انسان ـ ولو كان أخطر المجرمين ـ أن يتآمر على حياة « ممثل العناية الالهية على الارض » !.. ومع ان «كاترينا سفورزا » نشأت فى محيط يسوده الاجرام ، فما كان أحد ليتوقع أن تصل بها الجرأة الى هذا الحد !

وكانت « كاترينا » هى البنت غير الشرعية للدوق «جاليازو ماريا سفورزا » ، وقد شهدت بعينيها مقتل أبيها على درجات

كاتدرائية ميلان . وكانت قد تزوجت ـ وهى فى سن السادسة عشرة ـ بأبن أخ البابا «سيكستوس» .. المتوحش المجنون « جيرولامو ريارو » ، كونت دى فورلى . وقد وهبته ـ كبائنة لزواجها ـ مدينة (أيمولا) المجاورة . **على أنه لم تنقض أعوام قلائل ، حتى وقع هذا الزوج فريسة لهياج الغوغاء ، فقذفوا بجسده العارى ـ أمام عينيها ـ من برج قلعة (فورلى)** . فما كان منها الا ان عقدت العزم على الانتقام له .. وكان انتقامها أشنع وابشع !.. بيد أنها لم تلبث ان رأت زوجها الثانى ـ « جياجاكومو فيو » ـ يلقى نفس المصير ، فى تلك القلعة ذاتها .. وفى هذه المرة ، كان سبيلها الى الثأر من قاتليه بحرا من الدماء ، اذ انقض رجالها على مساكن القتلة فمزقوا أجسادهم وأجساد نسائهم واطفالهم شر تمزيق ..

بهذا العزم كانت المرأة التى أشهرت الحرب على آل بورجيا ، واصبحت الخصم الاول ـ فى ايطاليا كلها ـ لسيزار . وقد كان معاصروها يصفونها بأنها « **متوحشة ، قاسية ، ولكنها ذات قلب كبير** » .. وأنها « **حارة فى الحب ، وفى الحرب على السواء** » !!.. فكانت تكافىء المخلصين من ضباطها الاكفاء ، بأن تدعوهم الى فراشها ، وكان هذا لديها أرفع ـ وأمتع ـ جزاء !

وفى تلك الاثناء ، كان لويس الثانى عشر قد عاد الى فرنسا ، بعد أن أقام حاكما فرنسيا على (ميلان) .. كما أنه ـ وفقا لاتفاقيته مع البابا ـ وضع تحت أمرة « سيزار » اثنين من أقدر قواده ، على رأس ثمانية عشرة الف فارس ، وأربعة آلاف من المشاة ، مما مكن « سيزار » من شن حملاته .. وفى نفس اليوم الذى دخل فيه (ايمولا) منتصرا ، كان البلاط

البابوى مجتمعا فى (سان بيتر) ، لتقديم الشكر لله على نجاة البابا من مكيدة اغتياله .

وكانت « لوكريشيا » وزوجها هنالك ، يصحبهما سفير نابولى ، الذى ظل يأمل فى أن يتمكن - بنفوذ لوكريشيا - من اقناع البابا بأن يقف موقف الحياد ، فلا ينضم الى فرنسا، فى حربها ضد بلاده .. **واستخدمت لوكريشيا كل مواهبها - كامرأة - فى تعضيد حزب نابولى .. الا أن محاولاتها ذهبت ادراج الرياح** . وما كاد يمضى اسبوع واحد على سقوط (ايمولا) ، حتى دخل « سيزار » مدينة (فورلى) .. وفى قلعتها ، كانت « كاترينا سفورزا » تبذل آخر جهد فى مقاومتها اليائسة !

الفصل التاسع عشر

• **تجاوب** رنين اجراس مائة كنيسة - فى أول يناير سنة ١٥٠٠ - بينما كان الحجاج يتوافدون على روما من أركان الارض ، كى يحتفلوا بالعام اليوبيلى المقدس .. **وكانت لوكريشيا على راس الموكب الذى تقدم الحجاج ، لافتتاح العام الجديد المجيد ، يصحبها زوجها دوق بيسيجلى ، واخوها أمير سكويلاس ، وزوجته الاميرة « سانشيا »** .. وبين الهتاف واعجاب الآلاف من الناس ، مر الموكب المهيب - يتقدمه الصليب - من كنيسة (سان بيتر) الى (اللاتيران).

وكان مئات الجواسيس يندسون بين الجموع الزاخرة، وقد فتحوا عيونهم ، وأرهفوا آذانهم ، فى صمت وفضول وتلهف الى التقاط الهمسات التى قد تميط اللثام عن أسرار سان انجيلو ، أو تكشف غوامض جرائم القتل التى أصبحت

(روما) مرتعا لها ـ فى الفترة الاخيرة ـ **حتى لقد بدأ الخوف من آل بورجيا يصد بعض الامراء الايطاليين عن أداء الحج كعادتهم** . ولم يعد ثمة حاكم فى مقاطعات الدولة الرومانيه كلها ، الا بات يخشى أن يكون هو التالى فى القائمة السوداء .. حتى اولئك الذين كانوا من المعروفين بأنهم على علاقات ودية مع آل بورجيا !

الا أنه ما من واحد من أولئك الامراء ـ الذين كانوا يملأون مكاتباتهم السرية بكل الاتهامات وصب اللعنات على آل بورجيا ـ بذل أية محاولة لتقديم العون الى «كاترينا سفورزا» فى معركتها غير المتعادلة ضد « سيزار » وحلفائه الفرنسيين .. وكان الدفاع المجيد ، الذى أبدته تلك المرأة الباسلة من داخل قلعتها فى (فورلى) ، قد أشرف على مرحلته الاخيرة .. وما أجبرها على ان تسلم القلعة ـ بعد ثلاثة أسابيع كاملة من التاريخ الذى فتحت فيه المدينة ابوابها للغزاه ـ سوى خيانة صدرت من بعض جنودها .. **الا أنها ، حتى فى هزيمتها ، أثبتت ما تنطوى عليه من ذكاء ودهاء ، اذ قصدت عامدة أن توقع الفرقة بين الحلفاء ، حين أعلنت أنها تعتبر نفسها أسيرة فرنسا ، وليست أسيرة البابا !**

ولم يكن أسر النساء فى الحروب ، مخالفا لتقاليد الفروسية الفرنسية فحسب ، بل كان ثمة اعتبار آخر أكثر أهمية ، فى هذه الحالة بالذات .. وهو أن قائد الفرسان الفرنسيين ، « ايف داليجر » ، الرقيق القلب ـ الذى كان قد أبدى فى مناسبة سالفة ، منتهى النبل مع حسناء أخرى أسرت فى الحرب ، وهى «جوليا فارنيزى» **ـ كان قد وقع فعلا فى حب المحاربة الباسلة « كاترينا » ، فقرر ان يحميها من الوقوع فى يد « سيزار بورجيا »** .

وهكذا ففرت هوة الشقاق فاها بين الحلفاء : فبينما كان كل قائد فرنسي يعتبر نفسه ـ لفرط العجرفة ـ «ملك فرنسا ذاته» ، كان « سيزار » ـ من جانبه ـ يعامل حلفاءه فى غطرسة وصلف شديدين ، معتمدا فى ذلك على جنوده المرتزقة ، وما عرفوا به من وحشية مخيفة .. وهكذا كان « سيزار » يثير الحنق والحقد فى نفوس الجنود الفرنسيين ، الذين كانوا يعلمون انه ما كان أكثر من قس ابعد عن السلك الكهنوتى ، وانه اذا كان على شىء من المكانة ، فانما كان ذلك يرجع الى تحالفه مع ملكهم .

***

ومن المعقول ان يكون قائد فرسان فرنسا قد أعجب بالجمال الذى يحكى جمال الآلهة ، والبطولة الباسلة التى أبدتها « كاترينا سفورزا » .. أما سيزار بورجيا ، فانه لم يكن يرى فيها سوى امراة شريرة شرسة ، لم يكفها ان حاولت أن تقتل بالسم أباه ، وانما حاولت ـ فى أكثر من مناسبة ـ أن تستدرجه الى الموت .. ولكنه مع ذلك ، آثر ـ فيما يبدو ـ سبيل الدهاء ، **فراح ينافس الفرنسيين فى اظهار التودد نحو الكونتة الاسيرة ، باعثا اليها بالثياب الحريرية ، ومطالبا باعتبارها ضيفة مكرمة لدى صاحب القداسة البابا !**

وكانت « كاترينا » مشبوبة العاطفة ، متأججة الشهوة ، فسرعان ما استسلمت لفتنة الفاتح ذى الخمسة وعشرين عاما من العمر .. واذ كان سيزار ـ من جانبه ـ فى ذروة شبابه الجامح ، فقد رأى الفرصة مواتية كى يحقق نصرا جسديا ، يختم به نصره الحربى على تلك الانثى الفاتنة ، برغم ما كان يعلمه من كراهيتها له ولأسرته !.. ومن ثم استضاف « فالنتينو » الكونتة فى مركز قيادته فى (سيزينا) ، وأسكنها

فى ذات قصره ، وجعل غرفة نومها ملاصقة لغرفة نومه .. **ثم كتب الى أبيه خطابا ، أورد فيه عين التفصيلات الدقيقة التى سبق أن شرحها له ، حين كتب اليه عن ليلته الاولى مع عروسه ((شارلوت دالبير)) !**

واذ كان البابا لا يحرص على السر كعادته ، فقد ردد هذه التفصيلات على مسامع حاشيته .. ولم يمض زمن طويل ، حتى كان خبر علاقة سيزار بالكونتة قد تسرب وانتشر فى كل ايطاليا .. الا ان شائعة هذه العلاقة ما لبثت ان اقترنت بخبر آخر أوقع الجزع فى دوائر الفاتيكان .. اذ ذاع فى اليوم التالى مباشرة للاستيلاء على حصن (فورلى) ، ان الكردينال « جوان بورجيا » ـ ابن عم البابا ـ قد مات فجأة ، بعد عودته من معسكر سيزار !.. ثم تلاه نبأ الاسقف البرتغالى « فرديناندو دالميدا » ـ وكان أحد المخلصين لآل بورجيا ـ اذ وجد كذلك ميتا بعد ان اشترك فى احتساء الخمر مع ابن البابا .. وقيل ان الشكوك حامت حول اتصاله سرا بملك فرنسا ، وتجسسه لمصلحته .. **وما كان سيزار بورجيا بالرجل الذى يحتمل تجسسا عليه ، حتى من حلفائه !..**

وما لبثت الكوارث ان توالت بعد ذلك على الحلفاء .. ففى أواخر يناير ، وصل الى البابا خطاب من الكردينال « اسكانيو سفورزا » ، يتظاهر فيه بمشاطرته الحزن على وفاة ابن عمه « جوان » ، وينقل اليه الانباء الاولى عن دخول الدوق « لودفيكو ». منتصرا الى (ميلان) ، بعد أن استردها من الفرنسيين بمساعدة الامبراطور « مكسيمليان » ..

وكانت عودة آل سفورزا الى (ميلان) ، بمثابة سهم أصاب البابا وابنه على السواء .. اذ كان الفرنسيون قد اضطروا لارسال امداداتهم الى (لومبارديا) ، بينما كان «سيزار» فى طريقه الى (بيزارو) ـ الولاية التى كان يحكمها « جيوفانى

سفورزا)) ـ ليغزوها .. فما بلغه نبأ سقوط (ميلان) وانسحاب الفرنسيين ، حتى توقف عن السير ، ولم يعد أمامه الا أن يرجع الى روما ، ليعيد تنظيم جيشه ، وليحتفل بانتصاراته .. وكان لعودته هذه آثار متباينة ، على أسرة بورجيا : ففى حين راح البابا يعمل بنفسه ـ فى حمى من الفرح والحماس ـ لأعداد استقبال فاخر لابنه المنتصر ، **واجهت ((لوكريشيا)) عودة أخيها بمزيج مؤلم من القلق والخوف على مستقبلها ومستقبل زوجها** .. اذ كانت تدرك تمام الادراك ما يضمره ((سيزار)) نحو اسرة اراجون !

الفصل العشرون

• **كان** ((سيزار)) يكره زوج أخته ويحسده ويحقد عليه ، فراح يلح على ابيه كى يتخلص منه ، مبررا ذلك بأن وجود ألفونسو فى الفاتيكان ـ وهو من أمراء ميلان ـ يعتبر عملا عدائيا نحو حلفائهم الفرنسيين .. الا أن قداسته لم يكن ـ على اى وجه من الوجوه ـ عاشقا لأولئك الحلفاء ، **بل كان ـ على العكس ـ يجد مسرته فى أن يرى شعار اراجون مرسوما على سرير حفيده ((رودريجو)) الصغير ..**

الا أن الأنباء ما لبثت أن جاءت بعودة القوات الفرنسية الى الاستيلاء على ميلان ، وسحق آل سفورزا فى موقعة حاسمة فى (نوفارا) . وعندئذ لم يعد أمام البابا الا أن يذعن للحقيقة الواقعة ، وان يعترف ـ بينه وبين نفسه ـ بأن فرنسا قوة يجب ان يحسب لها حسابها فى السياسة الأيطالية ، ولو كان ذلك يؤدى الى التضحية بزوج ابنته ، الذى كان يحبه فى قرارة قلبه !

ومن سـوء الحظ ، أن « ألفونسـو » كان ـ برغم تلك الظـروف الشـائكة التى احاطت به ـ متهورا نزقا ، قليل الصبر ، سريع الانفعال .. وقد حدث ان بلغه ان البابا قد وافق على الغاء زواج ملك المجر ـ وكانت زوجته من (نابولى) ـ فثـار « ألفونسو » ، واحتج علانية ، قائلا أمام رجال الحاشية البابوية أنه « فضيحة للكنيسة ، واهانة ـ فى ذات الوقت ـ لأسرة اراجون » ! .. وكانت تلك كلمات مشئومة وخيمة العـاقبة ، فى الوقت الذى كان معـروفا فيه ـ لدى الجميع ـ ان المبلغ الباهظ الذى دفعه الملك ، فى سبيل ابطال زواجه ، قـد خصص كله لاعـداد فرقة جـديدة لجيش « سيزار » .

وكانت عودة الفرنسيين الى احتلال (ميلان) ، قد مهدت الطريق أمام « سـيزار » لغزوته التالية ، بعد ان أصبح آل سـفورزا أسرى فى يد فرنسـا .. ورغم أن البابا حاول ، فى غـير اصرار ، ان يتوسـط لمصلحة مسـتشاره السـابق ـ اسـكانيو سـفورزا ـ فقـد انتهى به الأمر الى اقرار الزج بهـذا الرجل ـ الذى كان له أكبر الفضل فى جلوسـه على عرش البابوية ـ فى أحد السجون الفرنسية !

وأصبح « سيزار » هو سيد (روما) ، بلا منازع . وقـد أهـداه أبوه ـ بعـد عودته الظافرة ـ وسـام « الزهـرة الذهبية » ، ونادى به حاميا للكنيسـة ، ولم يعـد يقيم فى قصره الخاص ، وانما انتقل الى جناح يلاصق جناح البابا فى الفاتيـكان ، وظلت القوات الخاضعة لقيادته معسـكرة فى المدينة .. وساد الارهاب مدينة (روما) ، حتى ان الحجاج الذين سعوا اليها ـ فى اسبوع الآلام ـ امتلأوا رعبا من منظر المشانق التى كانت منصوبة على جسر (سان أنجيلو) ، حيث كان يعلق عليها ما لايقل عن عشرين جثة فى كل يوم .. ومع

ذلك ، فان الرعب لم يؤد الا الى زيادة شهرة « سيزار » ورهبته .. وكان يجذب اليه جموع المرتزقة من أيطاليا وأسبانيا لينضموا تحت رايته !

واذ ايقن القوم من أنه لا خلاص لأيطاليا من هذا الطاغية المخيف ، الا بموت أبيه ، راحوا يتساءلون : **« الى متى يعيش البابا ؟ » .. و « الى أى وقت يظل هذا الأسبانى - الذى بلغ السبعين - متشبثا بالحياة ؟ » ..وكتب كابيللو : « ان صاحب القداسة يزداد صباه يوما بعد يوم » !** .. ومع ان نوبات الاغماء اصبحت تعاوده كثيرا ، الا انه سرعان ما كان يستعيد قوته ، ويسترد حيويته ، ويغدو أنشط حركة وأصلب عودا مما كان !

وصار «سيزار» يزداد حنقا وضيقا بزوج أخته - عندما كانت الاسرة تجتمع حول البابا ابان نوبات مرضه - الى درجة لم تعد تطاق أو تحتمل .. فهل كان حقا يشك فى تآمر « ألفونسو » مع آل كولونى ، أو انه كان يتخذ هذا الأتهام ذريعة لأمر كان يضمره له ؟

والواقع ان الأمير الشاب - ألفونسو - كان من الحماقة والطيش بحيث أقحم نفسه فى أمور السياسة ومؤامراتها ، ولم تكن سنه قد تجاوزت التسعة عشر عاما ..وكان رحيل مستشاره المخلص « اسكانيو سفورزا » قد تركه بلا ناصح ولا مرشد يهديه الى التصرف الحكيم ، بينما كان رجال حاشيته - الوافدون من نابولى - من جنس شديد الحساسية والاندفاع والتسرع .. وكانت مشاعره نحو «سيزار» تقوم على كراهية متبادلة . ولم تفلح كل محاولات « لوكريشيا » للتوفيق بينهما ، وأعادة الوئام الى قلبيهما ، الا فى أزدياد الغيرة والشكوك بين الغريمين ! .. **وقد ضاعف من موجدة «سيزار» ، ان لوكريشيا ما فتئت تداهن**

أباها وتتملقــه ، حتى حصلت منه على الممتلكات التى كانت لال ((جاينانى)) ـ وكانت من أغنى مقاطعات ايطاليا ـ مما حرمه من مبالغ طائلة كان يتوق الى انفاقها على جيشه الذى راح يخيف به الرومانيين ، ويتسلط به عليهم !

وكان تداعى صحة البابا بمثابة انذار ، كشف لعينى «سيزار» تلك الحقيقة الرهيبة ، التى كانت ـ الى ذلك الحين ـ بعيدة عن تفكيره .. وهى أن آماله ومطامعه كلها قد تنهار وتتبخر فى لحظة واحدة .. فى ذات اللحظة التى تنتهى فيها حياة أبيه ! .. ومن ثم ، فقد عقد العزم على أن يسرع كل الأسراع فى تنفيذ خططه ، وتحقيق مشاريعه ، والوصول ـ من أقرب السبل ـ الى مطامعه ومراميه ! .. فما ان عوفى ابوه من أصابته ، حتى دبر لمبعوث (فينيسيا) مقابلة معه ، لا لسبب الا أن يضمن لنفسه بعض المطالب التى كان يطمح الى تحقيقها ، لدى تلك الدولة الممتازة من دويلات ايطاليا .

ويصف « باولو كابيللو » كيف كان البابا جالسا ـ فى تلك المقابلة ـ على سريره ، يحيط به كل أفراد عائلته . وبرغم انه كان مريضا ، فقد بدا موفور المرح ، كثير الكلام كعادته ، يتبادل النكات والفكاهات مع « لوكريشيا » ، و « سانشيا » ، وغادة فينيسية أخرى ـ اسمها ((كاترينا)) ـ كانت آخر عشيقاته !..وقد ساهم الجميع فى ادخال المسرة الى قلب مبعوث (فينيسيا) ..وكان البابا أكثر الجميع احتفاء به ، وتوددا اليه ، وهو يلف كلماته المعسولة بوعود براقة بمساعدة (فينيسيا) فى معركتها ضد الأتراك ، الذين كانوا لايفتأون يغيرون عليها .. ثم كان البابا يلف الحديث ببراعة ، ليصل الى النقطة الجوهرية ، التى كان يهدف اليها من وراء كل تلك الجهود وتلك الوعود .. وهى أن يبذل المبعوث جهده لينال ابنه « الذى يحبه أعظم

الحب ، ويثق فى مقـدرته كل الثقـة » حظوة لدى حـاكم (فينيسيا) .

وقد كان المبعوث مؤدبا ، ولكنـه كان متحفظـا . وحين انفض الاجتماع ، اسـتصحبه سـيزار الى خارج الغرفه ، متأبطا ذراعه ، وهو يهمس فى أذنه **بان الظروف الراهنة قد برهنت له على خطر الاعتماد على حماية البابا ، فليس لديه رغبة أعظم من أن يضع نفسه فى خدمة فينيسيا ! ..** فكان جواب المبعوث : « أنت حكيم جدا ياسيدى الدوق ، لأنك ـ اذا مات البابا ـ ستفقد كل مكانة ، فى خـلال أربعة أيام » !

ومن رسالة «كابيللو» . يبدو كيف كان من عادة البابا أن يجرى محادثاته السياسية أمام أفراد عائلته جميعا ، ما عدا «الفونسو» زوج «لوكريشيا» . فقد كان مسـتبعدا ـ بأمر « سيزار » ـ عن تلك الاجتماعات .. وكان ذلك يؤجج نار السخط فى قلب الأمير الشاب ، **لاسيما أن زوجته اصبحت ـ فى تلك الفترة ـ تقضى أيامها ـ بل ولياليها ـ بجوار أبيها فى الفاتيكان ..** ولا بد أن الوحـدة دفعت ألفونسو الى ان يزداد انزلاقا فى تصرفاته المتهورة ، مما أدى الى ازدياد شكوك أخى زوجته ، الذى كان يراقبه ، ويبث العيون لاسـتقصاء نشاطه ، وما يشترك فيه من مؤامرات ومغامرات ..

***

وفى مسـاء ١٥ يوليو ، كان ألفونسـو عائدا ـ فى صحبة اثنين من حاشيته ـ من الفاتيكان ، بعـد أن تناول العشاء مع زوجته .. وكانت ليلة من ليـالى الصيف الصافيـة ، وميدان (سان بيتر) خال ، الا من جماعة كان يبدو للناظـر أنهم من الحجاج ، اخلدوا الى النوم على درجات الكنيسة .. **غـير أنهم قفزوا على اقدامهم فجأة ، عندما اقترب الأمـير**

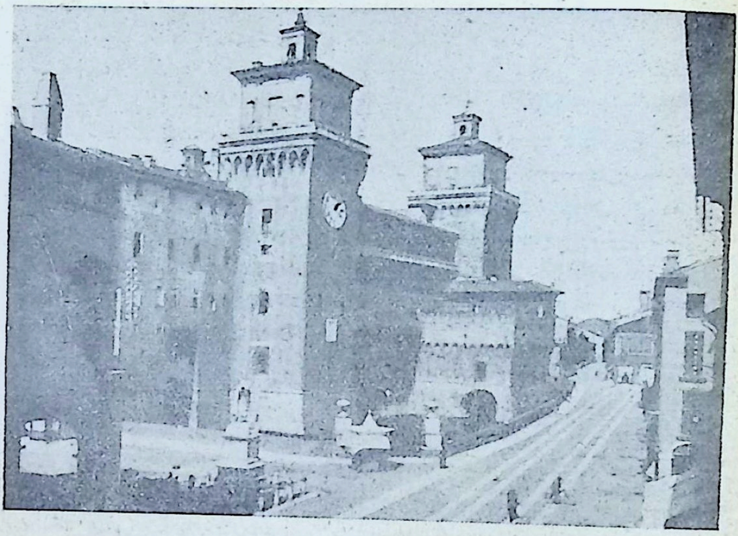

قصر آل ((ايسته)) فى فيرارا .. وتوجد فى المستندات والوثائق المحفوظة فيه ، أهم مصادر تاريخ بورجيا

منهم ، وقد شهروا خناجر فى أيديهم ، وانقضوا عليه يطعنونه فى وحشية وجنون !

وبرغم انه أصيب اصابات فظيعة فى راسه ، فقد ظل يناضل ليشق طريقه الى قصره .. ولكنه لم يكد يبلغ مدخله ، حتى استقبلته عصبة أخرى مسلحة ، حاصرته ، وهوت عليه بأسلحتها . ولولا بسالة مرافقيه ، لكانوا قد أجهزوا عليه . غير أن ضوضاء القتال ما لبثت أن بلغت

مسامع رجال الحرس البابوى ، فخرجوا يتبينون جلية الأمر . وما ان ظهروا فى الميدان ، حتى أسرع المعتدون بالفرار فى اتجاه (التيبر) ..

وجىء بألفونسو غارقا فى دمائه ، بين الحياة والموت ، الى جناح البابا ، حيث كانت أخته وزوجته جالستين .. وما ان ارقدوه على الفراش ، حتى فتح عينيه **وقال أن الذى حاول قتله هو « سيزار » .. واذ سمعت لوكريشيا ذلك ، أغمى عليها بين ذراعى أبيها ..**

وكانت حالة الأمير خطيرة جدا ، فسارع البابا الى استدعاء أحد الكرادلة ، كى يناوله السر المقدس قبل موته .. ولكن الاطباء ما لبثوا ـ بعد ان فحصوه ـ ان ابدوا أملا فى أنه قد يعيش.. ومع ذلك ، ظلت أخته وزوجته فريستين للخوف من أن يعود القاتل فيضرب فريسته ضربة أخرى ، تقضى فى هذه المرة عليه.. **واذ وعد البابا بأن يتولى الفونسو بحمايته ، فقد أرقدوه فى الغرفة الملاصقة لغرفة قداسته ، ووضعوا حراسة قوية أمام بابه** ..ولكن ، مهما يكن من وعد البابا بحماية زوج ابنته، ومن تأثره لحزن لوكريشيا ـ ان كان قد تأثر لحزنها ـ ومن اهتمامه بما كان للحادث من وقع لدى الرأى العام ، فأن سيطرة « سيزار » عليه كانت من القوة ، بحيث لم يبذل أية محاولة لأجراء أى تحقيق فى الجريمة !

وأقامت « لوكريشيا » ـ تساعدها « سانشيا » ـ بجانب سرير « الفونسو » تحرسه وتحميه . وراحت تعد بنفسها طعامه خوفا عليه من التسميم..ووصل أطباء ملك (نابولى) ، تصحبهم والدة « ألفونسو » .. واذ وجد الشاب نفسه محوطا بأهله ، عاوده الهدوء ، واسترد بعض عافيته ..

أما « سيزار » ، فانه لم يحاول أنكار الجريمة ، بل انه ـ

على العكس — **قد اعترف بها تقريبا** حين خاطب سفير (فينيسيا) قائلا : « أننى لم أطعن الدوق ألفونسو بيدى .. ولكننى لو فعلت ذلك ، لما كان أكثر مما يستحق أن أفعله به » ! .. بل أن البابا نفسه ، قرر للسفير بأنه **((لو كان سيزار هو الذى ارتكب هذه الجريمة حقا ، فإن معنى ذلك أن ألفونسو قد اقترف أمرا يستحق عليه القتل)) !**

ومضت أيام الصيف القائظ مشحونة بالدسائس والشبهات .. ومع ذلك ، استمر المريض فى قلعة بورجيا يتقدم نحو الشفاء .. وفى ١٨ أغسطس ، استطاع السير داخل غرفته ، فاتخذ مجلسا بجوار النافذة المطلة على حديقة البابا .. وهنالك ، قيل أنه لمح « سيزار » يسير وحده ، متنقلا بين الأشجار .. وفى لحظة كراهية عنيفة ، وجه « ألفونسو » نحو غريمه سهما وأطلقه .. ولكن السهم انحرف قليلا ، فلم يصب مرماه !

كانت تلك هى القصة التى رواها «سيزار» ، لتبرر ما فعله بعد ذلك .. ولكن أحدا لم يصدقها !

ففى المساء ، كانت « لوكريشيا » جالسة مع « سانشيا» فى غرفة « ألفونسو » ، يستمعون جميعا لأغنيات مهرج من بلاط نابولى ، واذا بهم يسمعون أصوات رجال آتين من البهو الخارجى .. وما هى الا لحظة ، حتى اندفعوا الى الغرفة ، وسيوفهم مسلولة فى أيديهم .. **وفى اللحظات الأولى من الروع والهلع ، اندفعت ((لوكريشيا)) و ((سانشيا)) كلاهما فى وقت واحد ، وقد خطر لهما ان تلتمسا من البابا حمايته ورحمته . الا أنهما لم تجداه ..** فعادتا مهرولتين مولولتين ،صائحتين ، نائحتين .. الا انهما وجدتا أن الأمر قد قضى .. وكان جنود « سيزار » يحاصرون الغرفة .. وعلى السرير ابصرتا « ألفونسو » جثة هامدة !

الفصل الواحد والعشرون

• **على** مسيرة خمسين ميلا نحو الشمال من روما ، وفى ظلال (مونت سيراكتى) ، تقع قلعة (نيبى) .. وهى بناء سامق ، يرتفع فوق الصخور ، وتكتنفه أحراش السنديان الكثيفة ، والكهوف الغارقة فى الظلمة المخيفة ، والقبور الدارسة التى تلفها رهبة الموت وبرودته ..

وإلى هذه القلعة جاءت ((لوكريشيا)) ، كى تقضى بها الأيام الأولى من ترملها .. فان تلك البقعة الموحشة ، كانت المكان الواجم الحزين الذى يتلاءم — فى ذلك الحين — مع ما كان فى قلبها من أحزان .. وقد زاد من وجيعتها أنها لم تجد لها فى فجيعتها صديقا واحدا يعزيها فى حبيبها ، أو يشاركها نحيبها ، أو يشاطرها بؤسها ويأسها وأساها .. **فقد تخلى الجميع عنها ، فى تلك اللحظة الرهيبة ، خوفا من انتقام أخيها !**

واهتزت ايطاليا كلها لمقتل « ألفونسو » . ولكن احدا لم يجرؤ على ابداء مجرد الاستياء من « سيزار » ، حين أعلن فى صراحة أنه هو قاتل زوج أخته .. حتى البابا بدا عاجزا عن أى تصرف ، ازاء تلك الجريمة الأثيمة التى اقترفها ابنه . فلم يجد أمامه من سبيل الا أن يدافع عنه — أمام السفراء — مرددا مازعمه سيزار من أن « ألفونسو » حاول اغتياله ، فأذاقه جزاء طيشه وتهوره !

ورغم أن البابا وعد — ازاء ما لمسه من السخط فى كل أنحاء البلاد — بنشر تقرير كامل عن الجريمة ومبرراتها ، الا انه صمت بعد ذلك ، فما نشر تقريرا ولا تبريرا .. وقد آثر أولئك — الذين كانوا يخافون على حياتهم — أن يغلقوا

افواههم ، وأن يحنوا أمام الطاغيـة جبـاههم .. عالمين أن جزاءهم اذا تكلموا ـ أو حتى تألموا ـ هو الموت !

***

وما ان غيب « ألفونسو » فى قبره ، حتى كان البابا يضع خطة لزواج «لوكريشيا» .. وأنطلقت الشائعات بأن «سيزار» يمهد لتزويج أخته من ملك فرنسا .. الا أن « لوكريشيا » ـ حين عادت الى روما ، وتحدث أبوها أمام حاشيته عن زواجها ـ قالت أنها « لن تتزوج بعد ذلك أبدا » .. فما كان من البابا الا أن انفجر ضاحكا ، اذ كان يعرف ـ تمام المعرفة ـ ان ابنته وان كانت شديدة الحزن على زوجها القتيل ، الا انها ـ شأنها فى ذلك شأن جميع أفراد عائلتها ـ لن تلبث ان تنسى وتسلو ، وتستسلم آخر الأمر لطبيعتها المرحة الطروب ، المفطورة على حب ذاتها ، والتمتع بالحياة وملذاتها .. وانها آخر من يرفض زواجا لامعا يعرض عليها !

الا أن « الزواج اللامع » ـ فى تعبير آل بورجيا ـ لم يعد مقصورا على دوق متواضع ، أو ابن غير شرعى لأحد النبلاء ، **وانما أصبحت الأسرة تتطلع الى الأبنـاء الشرعيين للملوك والأمراء !** .. بل ان « سيزار » راح يتقرب من آل ايسته ـ وهم الاسرة المالكة فى (فيرارا) ، ومن أعرق البيوت الحاكمة فى أوربا ـ قبل موت « ألفونسو » .. فلما ازيح التعيس عن الطريق ، اتجه نظر آل بورجيا الى « ألفونسو » آخر .. وكان «الفونسو» الجديد ، هو الأبن الشرعى لملك (فيرارا) ، ووارث عرشها !

على ان «لوكريشيا» ـ الابنة غير الشرعية لكاهن أسبانى ، والموصومة بكل فضيحة ـ لم تكن ، فى نظر آل « أيسته » ، بالمرأة التى تروق فى عين أسرة تتطلب من نسائها مستوى رفيعا

من الفضيلة والشرف ..وكانت فضيحة طلاق «لوكريشيا» من زوجها الأول ـ جيوفانى سفورزا ـ وما تبودل فيها من الاتهامات القذرة ، وما تردد فى بلاطات أيطاليا عن سقطات « سانشيا » ومغامراتها الداعرة ، وجريمة اغتيال الأمير « الفونسو » ـ فى قصر الفاتيكان بالذات ـ قد ألقت ظلالا على الأرملة اللعوب ، التى ما كاد يمضى شهر واحدعلى عودتها الى روما ـ بعد مقتل زوجها ـ **حتى استردت مرحها ، واستعادت نضرتها ، وعادت الى سالف لهوها ، واشراقها ، وانطلاقها وراء نزوات صباها !..** وبدأت اذناها تتفتحان لأحاديث الزواج التى اخذ ابوها يرددها !

وفى ذات الوقت ، بدأ آل «ايسته» يتنازلون عن كبريائهم أمام انتصارات « سيزار » ، الذى كانت جيوشه منطلقة ـ فى ذلك الحين ـ تخضع ولايات ايطاليا واحدة بعد أخرى . واصبحت كلمته هى العليا فى الدولة الرومانية كلها ، وقد رأى دوق أيركول ـ حاكم فيرارا ، وعميد آل ايسته ـ أن من الأحكم له التسليم بطلبات آل بورجيا ..

***

الا أن « الفونسو ديسته » ـ الأمير الذى كان البابا يتوق لان يزفه عريسا للوكريشيا ـ ظل يقاوم التحول الذى طرأ على فكر أبيه ، فيما يتعلق بهذا الزواج .. وكانت أخته « ايزابيللا » أشد منه معارضة فى عقد مصاهرة كانت تقول عنها أنها **((لو تمت ، لكانت عارا وخزيا أبديا للعائلة)) !**

ولكن دوق أيركول ظل متشبثا برايه الذى انتهى اليه ، بعد ما رأى من ارتفاع نجم « سيزار » ، وما سمع عن جمال «لوكريشيا» . **حتى لقد أعلن أنه لن يتردد فى الزواج منها ، اذا ظل ابنه مصرا على الرفض !**

وهكذا عادت « لوكريشيا » لتحتل مكانها الأول باعتبارها المرأة ذات الحظوة الكبرى فى الفاتيكان . وقد كتب « برتشارد » ـ فى مذكراته ـ ان قداسة البابا غادر روما فى أواخر يوليو سنة ١٥٠١ ، فى جولة خلال الولايات البابوية ، وانه ((**قبل أن يرحل ، سلم قصره وكل أعماله الى ابنته ((لوكريشيا)) ، وفوضها لأن تقوم بكل واجبات سلطته الدينية والزمنية)) !!**

ولنا أن نتصور فتاة فى العشرين من عمرها ، تجلس على عرش البابا ، وتتصدر اجتماعات المجمع المقدس ، وتتداول مع الكرادلة الموقرين ، فى شؤون الدنيا والدين ! .. كانت فضيحة ، أضيفت الى قائمة فضائح آل بورجيا .. بل جاءت فى مقدمتها جميعا !

وفى ذات الوقت ـ الذى كانت فيه « لوكريشيا » تقوم بأعمال صاحب القداسة ـ كتبت الى دوق أيركول ، على ورق يحمل خاتم البابوية ، أنها لتشتاق الى اليوم الذى تغدو فيه عروسا لأبنه !

***

وبينما كان «سيزار» يواصل انتصاراته الحربية ـ حتى وصل الى الحدود الشمالية لفيرارا ـ كان دوق (فيرارا) منهمكا مع البابا ، فى أعداد عقد زواج « لوكريشيا » . وقد تم توقيع العقد نهائيا فى قلعة أيسته فى (بلفيورى) ، ونجحت مساعى الدوق فى أن تكون بائنة الزواج مائة الف دوقية من الذهب ، ومائة الف أخرى ممثلة فى الجواهر والطنافس النفيسة .. واذ كان الدوق ممن يعشقون المال ويتوقون الى اكتسابه ، فقد سرته هذه النتيجة أعظم السرور ، وكتب الى البابا يقول : ((**ان الله ذاته قد أنار قلب قداستكم ..**

اذ سمح لكم بالتنازل والتعطف بمزج دمكم الكريم بدم آل أيستنه)) !

وفى خلال الأفراح بزواج ((لوكريشيا)) ، أولم ((سيزار)) وليمة دعا اليها اباه وأخته مع خمسين من أقذر عاهرات روما ! .. وبعد العشاء ، أحيت هاتيك النسوة السهره بالغناء والرقص الفاجر ، وقد نزعن - بالتدريج - ملابسهن قطعة قطعة ، حتى غدون عاريات كما ولدتهن امهاتهن .. وبينما كتب سفير (فيرارا) الى مولاه أن دوقة فيرارا المقبلة ، هى المثل الأعلى للفضيلة والعفة ، كانت «لوكريشيا» تساهم مع العاهرات الخمسين فى أداء رقصة الكستناء .. وهى رقصة كانت من ابتداعها هى ، تؤديها الراقصات عاريات ، وهن يحملن شمعدانات موقدة فى أيديهن ، **وينحنين على الأرض كى يلتقطن بشفاههن حبات الكستناء ، التى كان صاحب القداسة يرميها اليهن ، وهو جالس على العرش البابوى !..** حتى اذا انكفأت واحدة منهن - وهى تحاول التقاط الحبات - انفجر البابا وابنته ضاحكين جذلين !

وفى صبيحة يوم ٣ ديسمبر سنة ١٥٠١ ، أقيمت مراسم زفاف ((لوكريشيا)) للمرة الثالثة .. وكان زفافا لم تشهد له روما مثيلا فى كل عصور تاريخها المجيد التليد .

وتحدد يوم ٦ يناير سنة ١٥٠٢ لرحيل موكب «لوكريشيا» الى (فيرارا) .. ففى صبيحة ذلك اليوم ، ودعت «لوكريشيا» ابنها الصغير - الذى تركته فى رعاية جده البابا - وزارت لآخر مرة ، قبر زوجها «الفونسو» .. ثم توجهت الى الفاتيكان ، حيث كان أبوها فى انتظارها ، فى قاعة العرش البابوى .. **وهنالك انفردت به ساعتين كاملتين ، لم يشبع خلالهما من تقبيلها وعناقها ..** حتى اذا انطلقت بها العربة ، على رأس

موكبها ، راح يجرى كالمجنون بين نوافذ القصر ، ليتابع طيفها وهى تلوح له بمنديلها .. وعندما اختفت ـ آخر الأمر ـ عن ناظريه ، انخرط كالطفل فى النحيب !

الفصل الثاني والعشرون

● **كانت** الرحلة الى (فيرارا) طويلة ، استغرقت أكثر من ثلاثة أسابيع ، مر خلالها موكب «لوكريشيا» بأكثر الولايات الأيطالية . وكانت تستقبل فى كل مدينة تحل بها استقبال الملوك ، وقد تنافس حكام المقاطعات فى الترحيب بها ، وابداء الولاء لها ، نظرا لما أصبح لأخيها من النفوذ والسطوة فى أيطاليا كلها ..

وبرغم طول الرحلة وما تخللها من مراسم الاحتفال والاستقبال ، **يبدو أن «لوكريشيا» لم تحرم أثناءها من أشهى ملذات حياتها .. وهو الحب ! .. فقد كان ضمن مرافقيها ـ فى هذه الرحلة ـ ضابط من اجمل فتيان أسبانيا ، اسمه «رامينو دى لوركا»** . وقد عاقبه سيزار ـ بعد عودته مباشرة من غزواته ـ بالقتل ، من جراء فضيحة قيل انها تتصل بشرف «لوكريشيا» ، أثناء الرحلة!

واذ وصل الموكب الى (بنتيفوجليو) ، فوجئت لوكريشيا بزيارة من عريسها « الفونسو ديستته » . وهنالك انفرد بها ساعتين ، ثم أختفى فجأة كما جاء .. **وفى خلال هاتين الساعتين ، يؤكد العالمون ببواطن الأمور أنه تمتع فعلا بحقوق الزوجية ..** وما لبث الموكب ان وصل ـ فى ٢ فبراير سنة ١٥٠٢ ـ الى (فيرارا) ، حيث كان الشعب كله يقف متلهفا ، هاتفا لدوقته المقبلة ..

على أن البابا ما لبث أن شعر بالفراغ الذى تركته أبنته فى حياته ، اذ كان بطبيعته يميل الى صحبة النساء . فما مرت بضعة أيام على رحيل « لوكريشيا » ، حتى أرسل الى « سانشيا » يدعوها الى العودة مع زوجها الى روما . ولكى يغريهما بالعودة ، أهداهما قصرا فاخرا فى (البورجو) .. وبرغم أنه لم يكن من طبيعة « سانشيا » أن تنسى أو تصفح عما ارتكبه آل بورجيا فى حقها ، فانها ــ فيما يبدو ــ فضلت الحياة التى عرفتها فى روما من قبل ، على قضاء عمرها وحيدة فى غابات (سكويلاس) .. **وهكذا لم تمض أيام قليلة ، حتى عادت ــ مرة أخرى ــ لتعيش فى جو من الوئام والغرام ، مع قاتل أخيها !**

وقد ظل « سيزار » طيلة الشتاء ــ وفى بواكير الربيع ــ مقيما بالفاتيكان ، عاقدا فيه مركز أركان حربه ، محيطا ذاته بجو السرية المعتاد ، محتجبا عن المجتمعات العامة .. **وان حرص على حضور كل اجتماع كان البابا يحضره ، وكأنما كان يخشى ــ اذا غاب ــ أن يتخذ أبوه من القرارات ما يتعارض مع الخطط التى رسمها هو لمستقبله !**

وفى هذه الأجتماعات ــ التى كان يرأسها أبوه ــ كان كثيرا ما يفقد السيطرة على أعصابه ، فتتملكه نوبة من النوبات العنيفة التى كانت تبعث الرعب فى قلوب المحيطين به .. حتى البابا نفسه !

وكان جواسيس « سيزار » يجوبون المدينة كل ساعات النهار والليل .. وكل شخص يجسر على أن يتكلم ضد آل بورجيا ،كان لسانه يقطع على الفور ، بأمر الدوق ! .. ولو ترك البابا وشأنه ، ما أبدى اهتماما بمثل هذه الأمور .. حتى أنه حين ثار الرأى العام كله ضد آل بورجيا ، وقع فى يد الجواسيس خطاب يعبر عن هذه الثورة ، أرسله كاتبه

الى بارون رومانى ممن كانوا يعيشون فى المنفى ـ تحت حماية الأمبراطور « ماكسيميليان » ـ وضمنه اشد الشتائم والاتهامات التى يمكن أن توجه الى حاكم من الحكام ، فضلا عن تحريض صريح بدعوة الأمبراطور الى توجيه جيوشه ضد « ذلك الرجل الذى جعل من عرش البابوية وكرا للجريمة والاثم » ..

***

وحالف الحظ « سيزار » فى غزواته فى ذلك العام ، اذ كانت فرنسا واسبانيا قد اشتبكتا فى نزاع حول الحدود التى تفصل بينهما فى مملكة (نابولى) ، مما حدا بكل منهما الى التقرب من البابا ، والى محاولة اكتسابه حليفا لها دون الاخرى . فقوى هذا مركز « سيزار » ، واغراه بالايغال فى الغزو ، حتى لقد بلغ الجشع ان غزا (ايربينو) بالرغم من أنه أعلن أن أميرها ـ الدوق « جيدو بالدو دى مونتى فيلترو » ـ من أعز أصدقائه ، وانه يكن له كل حب اخوى !

ومع غزو (ايربينو) ، جاءت الانباء بمقتل الدوق « مانفريدى » ، أمير فانيزا الشاب .. **وكان قد وثق فى « سيزار » ، فسلم نفسه ومدينته اليه ، واذا بجثته تظهر طافية فى نهر التيبر ، فى اليوم التالى !..** وهكذا ، لم يكن أحد ليشعر بالامان اطلاقا ، حتى أولئك الذين كانوا فى تحالف مع آل بورجيا .

وعندما اذيع ان ملك فرنسا على أهبة العودة الى ايطاليا ، ليعد وسائل الدفاع فى حربه ضد اسبانيا ، اجتمع فريق من أمراء ايطاليا ـ سواء من ظل منهم فى الحكم ، أو من كان «سيزار» قد احتل ولاياتهم ـ واتفقوا على السفر الى ميلان

لتحذير الملك من الخطر المتزايد ، الذى يكمن وراء معاونته اسيزار الواسع المطامع !

وقد كتب « سيزار » ـ بهذه المناسبة ـ الى « ايزابيللا ديستنه » ، ينذرها بأن من الخير لها ـ ان كان يهمها أن تظل على علاقة حسنة مع آل بورجيا ـ ان تحذر زوجها من ان يقبل فى أرضه أعداء الكنيسة . الا ان زوجها « فرانشيسكو جونزاجا » ، لم يكن ـ لسوء الحظ ـ على نصيب مما عرف عن آل أيستنه من حذر واحتراس .. فلما سافر الى (ميلان) كى يحرض ملك فرنسا على أن يطرد **« ابن الزنا هذا ، الذى يحطم ايطاليا »** ، كتبت اليه زوجته تحذره من احتمال قتله بالسم قائلة له : « ان ثمة انباء بأن سموكم قد تحدثتم بكلمات عنيفة ضد « سيزار » ، امام الملك وسفراء البابا .. وسواء كانت هذه الانباء صادقة أو غير صادقة ، فستصل ـ بغير شك ـ الى آذان ذلك الطاغية ، الذى أثبت انه لا يتورع أبدا عن الحاق الاذى ، حتى بأقاربه الاقربين .. **فهو ـ من ثم ـ لن يتردد فى ان يعتدى عليكم ، وانه لمن السهل على أى خادم من خدامه ان يدس السم لسموكم !..** ولذلك أضرع اليك أن تكون أكثر حذرا من أجل خاطرى ، ومن أجل ولدنا » !

الفصل الثالث والعشرون

• **تواترت** الانباء ـ فى تلك الايام ـ بأن « لوكريشيا » مريضة .. وكم ساد الفزع بلاط (فيرارا) ، خشية أن يكون مرضها مؤديا الى الموت .. وبرغم ان الحالة لم تكن ـ فى مبدئها ـ تبدو أكثر من احدى الحميات التى كان من المعتاد انتشارها ، أثناء الصيف ، فى وادى (البو) ، الا أن

المضاعفات ما لبثت ان اشتدت الى درجة تنبىء بالخطر .. فلم يجد دوق أيركول مناصا من المبادرة الى اخطار ابيها وأخيها ، راجيا ارسال أطباء البابا للتشاور مع أطباء البلاط ، خوفا من أن يتهم بتعمد قتلها بالسم .. ومع ذلك، فقد وردت رساله من سفير (فيرارا) لدى الفاتيكان ، ينبىء فيها بأن « **صاحب القداسة قد اعلن صراحة أن مرض ابنته انما ادت اليه أسباب مفتعلة ومتعمدة** » .. بل لقد ذهب قداسته الى ابعد من ذلك ، اذ صرح مهددا بأنه « اذا ماتت الدوقة ، فسوف يكون آل أيسته اكثر أسفا على موتها من آل بورجيا انفسهم ! » .. وكان معنى هذا ، ان سلامة الاسرة الحاكمة فى (فيرارا) ، باتت رهنا بسلامة لوكريشيا !

وبلغ من اهتمام « سيزار » بمرض أخته ، أنه ترك البلاط الفرنسى ـ حيث كان يتباحث مع الملك فى الشئون الحربية ـ وأسرع الى (فيرارا) كى يطمئن على هذه الاخت ، التى كانت علاقته بها من أعجب الامور واعقدها .. ولم يعد الى حيث كان ، الا بعد أن رآها قد استردت بعض عافيتها .. وما أن انقضت أسابيع على رحيله ، حتى جاء « لوكريشيا » المخاض، قبل ان تكتمل أشهر حملها ، وأوشكت ان تموت .. واذا به يسارع اليها ـ تحت جنح الليل ـ مع أخى زوجته ، كردينال « دالبير » ، وثلاثة عشر آخرين من اتباعه .. وقد أقام الى جوار فرشها ممسكا بيديها خلال عملية الوضع كلها .. **والعجيب أن « لوكريشيا » ـ برغم كل ماارتكبه «سيزار» فى حقها ـ ظلت تحبه حبا أعمى ، حتى لقد كان مجرد حضوره كافيا لأن يعيد القوة والعافية اليها !**

وفى هذه الاثناء ، كان الخوف من « سيزار » قد أخرس السنة الايطاليين جميعا .. وكانت أحداث الموت المفاجئة ، وحوادث القتل الغامضة ـ التى ذهب ضحيتها كثيرون من

أعضاء المجمع المقدس ـ ووسائل القسوة والغدر التى عومل بها حتى أقرب الاقرباء وأصدق الاصدقاء ، قد تركت صداها المفزع فى النفوس ، وأصبحت ـ بحكم الواقع ـ أمرا لا يمكن دفعه أو تحاشيه فى تلك الايام .. وفى ذات الشهر الذى وقع فيه اجتياح (ايربينو) وخديعة أميرها الطيب القلب ، توفى كردينال « مودينا » ـ الواسع الثراء ـ فجأة . وقد كان معدودا من الاقربين الاوفياء للبابا ، وكان له الفضل فى مفاوضات المصاهرة ، التى انتهت بزواج « لوكريشيا » من أمير (فيرارا) .. **وما كاد يوارى لحده ، حتى صدر أمر البابا بمصادرة جميع أملاكه والاستيلاء على كل مرتباته ومخصصاته بصفته كردينالا** .. وقد نتج منها مكسب لآل بورجيا ، يزيد على خمسين الف دوقية ، خصصت كلها لدفع الاجور الباهظة لجنود « سيزار » .. فقد كان يسخو مع جنوده ، حتى تمكن من استدراج الآلاف المؤلفة من المرتزقة الاوروبيين .

على ان النتيجة الاهم ، تمثلت فى أن مصادرة تلك الاموال كانت حافزا لأكبر العقول ـ فى ايطاليا ـ لأن تتجه نحو « سيزار » ، وأن تسير خلف نجمه الساطع ..

***

وبعد بضعة شهور ، ظلت « لوكريشيا » خلالها طريحة الفراش وفريسة المرض ، استردت تشبثها بالحياة ، **وعاودت ـ هذه المرة ـ حياتها بكل ما اعتادته من مرح وبهجة خلال اقامتها بالقرب من ابيها فى روما** . وقد غيرت من مشاعرها نحو (فيرارا) وأهلها ، بعد أن كان يسود هذه المشاعر ـ قبل مرضها ـ كثير من الصدود والبرود وعدم الاكتراث . وقد أثر سلوكها الجديد فى حميها الدوق ، وبدل

من احساسه نحوها ، حتى لقد أصبح لا ينقطع ليلا أو نهارا عن زيارتها أو استصحابها معه فى اجتماعاته الرسمية أو فى مجالس لهوه على السواء ..

الا ان كل ما أحاطها به من عطف وعناية ورعاية ، لم يكن ليجعلها تقوى على احتمال فصل الشتاء القارس البرد فى (فيرارا) ، **لولا أنها وقعت — فى ذلك الفصل بالذات — فى حب جديد !.. وكان حبيبها فى هذه المرة هو الشاب الجميل « ايركول ستروزى » ، أحد أفراد حاشية الدوق ايركول** .. وكان شاعرا وابن شاعر ، وينتمى الى فرع من فروع آل ستروزى فى فلورنسا ، وهو الفرع الذى استقر فى (فيرارا) — فى مستهل القرن الثالث عشر — وكان أبوه « تيتو فسبازيانو ستروزى » ، أحد مشاهير الأدب اللاتينى فى ذلك العصر ، ومن أعز أصدقاء دوق ايركول ..وقد كان هذا الحبيب الجديد جميلا ، وذكيا ، وحلو المعشر ، مما حبب فيه — منذ طفولته الأولى — أمراء العائلة المالكة فى (فيرارا) ..

فلما اتصل بلوكريشيا وأحبها وأحبته ، أحاطها بذلك الجو الشاعرى الذى كان يشيع فى روحه ، **فأوحى اليها سلاما وأمنا كانت أحوج ما تكون اليهما فى ذلك الوقت ، الذى كانت تطاردها فيه اخبار ما يرتكبه أخوها من جرائم رهيبة** .. ولم يكن يمضى يوم دون شائعات جديدة عن أشخاص قبض عليهم أو ذهبوا ضحية الاغتيال ! .. وقد بدأت الثورة ضد سيزار تتسع فى ايطاليا ..

وفى ذات يوم ، استيقظ أهل (سيزينا) فى الصباح ، ليجدوا جثة الحاكم الأسبانى — ذى العينين الزرقاوين — « راميرو دى لوركا » ، مشنوقا خارج قصره ..وقد كان من أشد الولاة اخلاصا لسيزار . وانا لنجد — فى بعض الرسائل

ـ أن سبب موته يرجع الى اتهامه بفضيحة تتصل بلوكريشيا ، اذ جاء فيها أن ((**سيزار لم يغفر قط لتابعه الأمين علاقته غير الشريفة بدوقة فيرارا ، أثناء رحلتها خلال الولايات الرومانية !))**

ثم جاء الدور على ((تروشى)) ، وكان من أخلص التابعين لسيزار . . اذ اعتقل فجأة ، حين كان فى طريقه الى (جنوا) ، متهما بأفشاء أسرار سيده لدى ملك فرنسا . كما ان الكردينال ((لوبيه)) ـ الذى كان من أقرب أصفياء البابا ـ مات كذلك فى ظروف غامضة . . وقيل أنه قتل مسموما ، لأن الطاغية الأعظم كان معروفا بأنه لم يكن يميل اليه ! . . وقبض كذلك على دوق جرافيا الشاب ـ وكان من ندماء لوكريشيا ـ مع ابن عمه ((باولو أورسينى)) . . وسارا معا فى ذات الطريق الذى سبقهما اليه كل ضحايا بورجيا ، طريق الموت . . وهكذا تصور لنا رسائل السفراء جو الرعب والفزع الذى ساد روما ، حتى أصبحت الفكرة الوحيدة الشاغلة لأهلها جميعا ، هى التكهن بمن عساه أن يكون هو التالى فى قائمة الضحايا التعساء !

وقد ضاعف من خطورة الحال ، وهول الحياة التى كانت تسود المدينة فى ذلك الوقت ، **أن البابا ذاته قد غمس ـ هو الآخر ـ يديه فى بحر الدماء ، وانهمك فى شهوة القتل . .** اذ أن الدور الذى لعبه آل أورسينى فى أشعال نار الثورة ضد آل بورجيا ، قد أهاج كل العداء القديم الذى يكنه صاحب القداسة نحوهم . . ومن العجيب أن ((سيزار)) اصبح متسامحا ، فى الوقت الذى بدأ فيه أبوه يغدو سفاحا ، اذ كان يعتبر آل أورسينى حلفاء لفرنسا . . وفى حين أضمر أبوه أفناء العائلة بأسرها ، أبدى هو منتهى التساهل نحوها ، واستعداده للصفح عن افرادها ، والتجاوز عن مساهمتهم فى

حركة التمرد التى كانوا هم قادتها ضد البابا .. وقد ذهب فى ذلك الى حد التشاجر مع أبيه الذى هدد فى ثورة من الغضب - كما قال جوستنيان ، سفير فينيسيا - قائلا : **« ان لم يبادر أبن العاهرة هذا بالعودة سريعا الى روما لتأديب أولئك الخونة ، فسأعاقبه بالحرمان والتجريد » !**

وفى حين كان « سيزار » يتمهل عامدا ، وهو يتلقى أنباء خضوع (بيروجيا) ، و (سيتادى كاستيللو) ، منتظرا أن يرى الى أين تتجه الريح فى (رينيى) - حيث كان الفرنسيون يكابدون سلسلة من الهزائم على يد «جونسالفو دى كوردوبا» - كان البابا يخوض معركته ضد آل أورسينى .. فاذا الذين بلغت بهم الحماقة الى حد المجازفة بالبقاء فى روما ، يقعون جميعا تحت طائلة الاعتقال ، لم يستثن منهم حتى الكردينال الساذج الذى كانت قلعته هى مركز قيادة الثورة على مرتفع (تراسمينى) ، والذى كان يعتقد أن البابا قد صفح عنه .. ولم تشفع له دموع امه ، التى بلغت الثمانين من عمرها ، ولا وساطات الكرادلة ، فى أن يفلت من قبضة بورجيا . . وفى الأيام الأخيرة من فبراير ، كتب سفير (فينيسيا) فى أحدى رسائله السرية : **« ان كردينال أورسينى يعانى سكرات الموت ، بعد أن تناول الجرعة القاتلة » !**

ما من أحد كان يشعر بالأمان ، وأنما كان الجميع يتملكهم الخوف والفزع ، سواء من الغارات خارج المدينة أو من الأعتقال ، أو الاغتيال داخلها .. وبدأ الكرادلة يتغيبون - واحدا بعد الآخر - مرتحلين نهائيا عن روما . . فهذا «جيليانو ديللا روفيرى » يبادر بمغادرة روما مسرعا الى فرنسا بعد أن اكتشف تدبيرا لاختطافه من قلعته فى (أوستيا) .. وهذا كردينال ديسته الشاب ، يقرر فجأة - فى بواكير الربيع - أن تغيير الهواء قد يفيد صحته . **وقد اقترن**

رحيله بفضيحة جـديدة ـ فى محيط عائلة بورجيـا ـ وهو صـدور الأمر باعتقال الأمـيرة ((سانشيا)) فى قلعة (سان انجيلو) .. وقـد قال البعض انـها اتهمت بالتآمر مع آل أورسـينى ، وقال آخـرون أنها كانت تتجسس لحسـاب أسبانيا ، وقال فريق ثالث أن ((سيزار)) قد مل عشرتها .. أما الفريق الرابع ، فقـد أكد ان سـيزار أنما كان يغار من علاقتها مع ((أيبوليو ديسته)) ..

ومهما يكن سبب اعتقال ((سانشيا)) ، فقد أثبتت أنـها ـ حتى فى سجنها ـ كانت مصدر متاعب . فما ان دخلت قلعة (سان انجيلو) ، حتى أصبح من المناظر المألوفة فى روما ، رؤية أميرة اراجون الجميـلة ، تخاطب النـاس من شرفة سـجنها ، وتسـتوقف عابرى الطريق لتسـمعهم أشـنع العبارات فى سب البابا وهجوه والصاق أبشع الاتهامات به وبعائلته .. فكان سـجنها فضيـحة فوق فضيحة ، وكانت شتائمها أقبح ما طرق آذان الرومانيين أجمعين !

الفصل الرابع والعشرون

• جاء الصيف مبكـرا فى سنة ١٥٠٣ ، وقـد جاء معه بالحمى الى المدن ، مما دفع سكانها الى الفرار الى الأرياف .. أما دوقة (فيرارا) الصغيرة ، ((لوكريشيا بورجيا)) ، التى كان تحت أمرتها ستة منازل فى الريف ـ لها أن تختار من بينـها ما تشاء ـ فقد صممت على البقاء فى قلعتـها فى المدينة ، رافضة مغادرتـها .. ولم يكن سبب ذلك الرفض مما يصعب اكتشافه : فان حبيبها الشاعر الجميل ، ((بييترو

بيمبو » ، كان – فى ذلك الوقت – قد سقط مريضا فى قصر ستروزى ، وكانت لوكريشيا مشغولة بتتبع أنبائه !

الا أن « بيمبو » ما كاد يسترد صحته ، حتى عاد الى (أوستيلاتو) . وحينئذ فقط ، أخذت لوكريشيا حاشيتها الى (ميديلانا) – وهى أحدى « فيللاتها » فى الضواحى – حيث أصبحت متمتعة بكل حريتها ، بعيدة عن الأعين التى كانت ترقبها وتسجل عليها كل حركاتها وسكناتها ، وخاصة عينا كردينال ايبوليتو ، الذى كان فراره من وجه « سيزار » فى روما ، وعودته الى فيرارا ، سببا فى مضايقتها ، والتضيق عليها .. لا بسبب القصص الشائنة التى راح يذيعها عن فضائح عائلتها فحسب ، وأنما لأنه – كأخته « ايزابيللا » – كان فضوليا ، **وكان يعرف لوكريشيا كل المعرفة ، ويفهمها تمام الفهم ، بحيث يصعب عليه جدا أن يصدق أن علاقتها مع « بيمبو » لم تكن أكثر من حب افلاطونى !**

وفى (ميديلانا) ، لم يكن فى وسع أحد من آل ايسته أن يدخل حدائق الورد المحيطة بمنزلها الرشيق ، ولا أن ينفذ بعينه الى خصوصيات حياتها ، أو انطلاقات عواطفها .. وخلال كل أيام الصيف الطويلة – حين كان ألفونسو متغيبا فى رحلاته – اخذت العلاقات بين « لوكريشيا » و « بييترو بيمبو » تزداد توثقا ، يوما بعد يوم ..

الفصل الخامس والعشرون

• وفى أغسطس ، ظهر الطاعون فى كلّ مدائن ايطاليا . وكان من أول ضحاياه أبن أخ البابا ، كردينال مونريال .. **وان كان جوستنيان ، سفير فينيسيا ، يؤكد أنه مات بنفس**

الوسيلة ، التى سبق أن مات بها كل الضحايا السالفين .. وهى جرعة السم !

وبرغم أن أكثر من نصف رجال الحاشية البابوية وقعوا ضحية المرض ، فان البابا ظل مقيما فى روما .وقد بدا متجدد الشباب ، مرحا. واستمر فى مزاولة نشاطه السياسى المعتاد ، غير عابىء بذلك الوباء الوبيل ، الذى انطلق كالوحش المفترس يفتك بالناس ويحصدهم حصدا .

وفى مساء ٦ أغسطس سنة ١٥٠٣ ، دعى البابا وابنه سيزار الى مأدبة عشاء ، أقامها الكردينال كورنيتو ، فى داره الصيفية على قمة (مونتى ماريو) .. **ولم تحن صبيحة اليوم التالى ، حتى انطلقت أشاعة فى روما كلها ، بأن البابا وابنه قد وقعا فى براثن المرض ..** وبرغم أن خطورة مرضهما ظلت — فى أول الأمر — محجوبة عن الشعب ، الا أنه ما لبث أن أذيع أنهما كانا يعانيان من حمى شديدة ، وأن حالتهما اخذت تزداد سوءا .. وكان يبدو أحيانا ، أن البنية المتينة — التى كان البابا يتمتع بها — ستنتصر فى المعركة العنيفة ضد المرض . **الا أنه تكشف للجميع — فى اليوم الرابع — أن صاحب القداسة قد وصل الى أيامه الأخيرة ،** وأن الأمل **ضعيف فى شفائه .. ثم اذيع فى مساء ١٨ أغسطس — أنه راح يعانى سكرات الموت ..**

وأبى الناس أن يصدقوا أن بورجيا يموت على سريره موتا طبيعيا ، وراحوا يتناقلون فيما بينهم ، ان الذين كانوا معه فى غرفة موته **شاهدوا الشيطان يظهر عند سريره كى يقبض روحه ، جزاء ما ارتكب من شرور وآثام ،** وعقابا له على الجرائم الفاحشة التى ارتكبها فى حق الكنيسة ، والسيرة الشائنة التى لوث بها ذلك العرش الطاهر . وانطلق أهل روما يؤكدون أن ذلك الرجل « النحس ، الملعون ، المأفون »

الذى طالما قتل الناس بالسم ، أنما كان ضحية للسم بدوره .. كى يتحقق فيه قول يسوع : «من أخذ بالسيف، بالسيف يؤخذ » !

وقد كتب جيشياردينى ان « البابا وأبنه وقعا ضحية ذات السم الذى كانا يقتلان به ضحاياهما .. **اذ كانا قد تواطئا على اغتيال الكردينال كورينتو على ذات مائدته ، الا أن الساقى أخطأ وهو يوزع كؤوس الخمر ، فناولهما من الشراب القاتل » !** .. ومما زاد هذه القصة ــ فى أذهان الناس ــ تأكيدا ، أن البابا ما كاد يلفظ النفس الأخير ، وتخرج روحه من جسده ، حتى انتاب جثته تعفن سريع ، فظيع ، وأصبحت ــ فى لحظات قليلة ــ شوهاء ، سوداء ، بعيدة كل البعد عن هيئة البشر !

الفصل السادس والعشرون

• **أما** سيزار ، فقد لازم جناحه ــ فى قلعة بورجيا ــ وهو يكتوى بنار الحمى ، وقد بات بعد موت أبيه ، تحت رحمة الظروف .. ولم يجد الاطباء بدا من أن يصفوا له العلاج الذى لم يجرؤوا على أعطائه لأبيه بسبب تقدم سنه ، وبسبب ما قد يترتب على هذا العلاج من احتمالات مخيفة ، ونتائج قاسية .. فقد كان يتطلب ذبح جواد ، والمبادرة بانتزاع أمعائه ، ثم الاسراع بحزمها حزما شديدا ــ وهى لا تزال بكل حرارتها ــ حول الأجزاء المصابة من الجسم ، ويغطس المريض ــ بعد ذلك ــ فى حوض من الثلج .. هكذا كان الطاعون يعالج فى ذلك الحين . ومهما تكن هذه الطريقة ناجعة كعلاج ينقذ المصاب من الموت ، فأنها كانت تترك خلفها آثارا بشعة ، تلازم الأنسان ما بقى من حياته .

وفعلا ، فان سيزار - وان كان قد ابل من مرضه - لم يعد بعد ذلك الشاب الجميل الذى طالما فتن قلوب النساء ، وانما أصبح شخصا مشوها ، موصوم الوجه بتلك الندوب اللعينة السوداء ، التى يتركها خلفه ذلك الوباء الوبيل .. وقد ترك هذا المرض أثره المدمر ، لا فى جسمه فحسب ، وانما فى عقله كذلك .. وقد اعترف سيزار - بعد ذلك - لماكيافيللى بأنه « كان قد أعد نفسه لكل الاحتمالات والتطورات التى قد تحدث فى حالة موت أبيه .. ولكنه أبدا ما خطر بباله أنه - فى ذلك الوقت بالذات - سيكون هو نفسه فريسة المرض ، الى حد أعجزه عن العمل » .

والواقع انه كان - فى الساعات الاخيرة من حياة أبيه - فريسة لأعنف أطوار الحمى ، وأشد حالات الضعف . بينما كان سكرتيره «أجابيتو» يأتيه بآخر الأنباء من حجرة البابا ، .. حتى اذا بلغه أن أباه اخذ يلفظ انفاسه الأخيرة ، أصدر أمرا الى تابعه « ميشيليتو » - وكان هذا آخر ما أصدر من أوامر الأرهاب فى عهد بورجيا - فانطلق ذلك التابع ، وسيفه مسلول فى يده ، وشق طريقه - بين صفوف الحرس - الى حجرة البابا . وهنالك سدد سنان السيف الى صدر الحاجب ، الذى تملكه الرعب من فرط المفاجأة ، فسلمه على الفور مفاتيح الخزانة البابوية ..

وكأنما كان هذا العمل ، هو الطلقة الاولى من فوهة مدفع تحمله عصابة من عصابات قاطعى الطريق .. فبينما راح « ميشيليتو » يفرغ ما فى جوف الخزانة من أموال البابا ومجوهراته وتحفه ونفائسه ، اجتاحت الجناح البابوى موجة عارمة من السلابين والنهابين ، الذين راحوا يسرقون ، ويحرقون ، ويمزقون ، ثم ينطلقون - كل منهم بما غنم - وقد ساد الهرج والمرج ، وفر الكرادلة مسرعين ، فزعين ، ووقفه

رجال الحرس حائرين لا يدرون بما يفعلون ، أو متعمدين أن يظلوا فى أماكنهم غير مدافعين .. بل ان بعضهم اندفع ينهب مع الناهبين ، غـير متورعين ، ولا مراعين حـرمة البيت أو حرمة الموت !

***

وسرعان ما انتشر خبر وفاة البابا فى المدينة كلها ، فأذكى فيها لهيب الكراهية المكبوتة ـ منذ عشرات السنين ـ لأولئك الطغاة ، البغاة ، الفاسـقين .. **وتحت نوافذ قلعة بورجيا ، تعالى زئير الجماهير الثائرة ، التى انطلقت كالوحوش الكاسرة ـ بعد طول الأسر والآلام ـ تريد الانتقام !**

وقرع آذان سـيزار ـ وهو فى سريره ـ صوت الشـعب وهو يصرخ هاتفا : « يسـقط ابن الزنا » ! .. « الموت لكلب مـيرانو » ! .. ومن وراء الأسـوار البعيـدة ، كان صدى صيحات روما كلـها يتردد ، وهى تصب لعنتـها على ذلك الجثمان الذى لم يوضع بعد فى الاكفان ، صائحة على مسامع الدنيا : « الى الجحيم أيها الفاسق اللعين » ! .. ثم تتحول روما ، فتصب جام غضبـها على دكتاتورها الأعظم ، الذى أصبح بعد موت أبيه سـجينا فى حجـرة مرضه ، مسلوب القوة ، مغلوب الأرادة . فراحت تهتف : **« الويل لك ياخادم الشيطان ، وهادم الكنيسة » !**

وهكذا صدقت نبوءة « كابيللو » ـ سفير (فينيسيا) ـ حين خاطب سيزار قائلا انه خـلال ساعات قليلة من موت أبيه ، يفقد كل سلطانه العريض ، ويسـقط من علياء مجده الى أسفل دركات الحضيض .

***

وقد كان .. فاذا الـرجل الذى أرهب أيطالـيا كلـها ،

وأجبرها على أن تركع ذليلة عند قدميه ، وأعلن فيها شريعة الغاب ، وعلق فيها جثث ضحاياه فى كل مكان .. **اذا به ـ بمجرد ان لفظ أبوه النفس الأخير ـ يجر نفسه جرا من سرير مرضه ، ضعيفا مرتجفا ، كى ينشد لنفسه ملجأ فى قلعة (سان أنجيلو) ..** حيث كانت تحوم أرواح الأبرياء ممن ذبحهم ذبح النعاج ، أو سقاهم كأس السم التى لم يرحم منها عدوا ولا صديقا ولا شقيقا !

الفصل السابع والعشرون

• **كانت** « لوكريشيا » فى (ميديلانا) ، حين وصل خبر وفاة أبيها الى (فيرارا) .. وكان من نصيب كاردينال « أيبوليتو » أن ينهى اليها ذلك الخبر .. وكان أبوها ـ بالنسبة اليها ـ هو القوة التى تستمد منها حيويتها وحياتها ، فلما ألقى أخو زوجها بالنبأ الفاجع اليها ، قالت أنها ـ فى تلك اللحظة ـ لم تعد تحس بغير الرغبة فى ان تموت هى الأخرى !

لقد كانت ـ بين أبنائه جميعا ـ أحبهم اليه وأقربهم الى قلبه ، وقد اندمجا معا فى كل ليالى المرح والبهجة ، واشتركا معا .. حتى فى حب سيزار والخوف ! .. **ولعل تفكيرها فى سيزار ـ الذى كان مريضا ، وبلا معين ، وفى حاجة اليها ـ هو الذى منحها القوة على احتمال صدمة ذلك النبأ الذى كاد فى البداية أن يقتلها ..** فقد حجب خوفها على أخيها كل شعور آخر فى قلبها ، حتى ذلك الشعور بالخوف الذى انتابها من المصير المنتظر ..

وكانت على حق فى مخاوفها .. فما كادت تفيق من وقع الخبر عليها ، حتى كان أبو زوجها ـ **الدوق أيركول** ـ يكتب

الى سفيره فى ميلان رسالة كى يسلمها ـ يدا بيد ـ الى الحاكم الفرنسى «شومون» .. وقد ورد فيها : « أن علاقتنا بالبابا لم تكن مصدر أى ارتياح لنا .. بل أننا لم يسبق لنا أن صادفنا من المتاعب مع أحد الباباوات السابقين ، قدر ما أصابنا من ذلك الرجل الذى أرهقنا أشد الأرهاق ـ حتى بعد ابرام المصاهرة والتحالف معنا ـ فى تنفيذ الوعود التى كان قد بذلها لنا .. **واننا لنلقى مسئولية مسلكه هذا على ابنه ، الذى لم يكن على الأطلاق صريحا معنا ، ولم يطلعنا مرة واحدة على خططه ، مع أننا ـ على الدوام ـ كنا نطلعه على خططنا .. » !**

فلما بلغت هذه الرسالة ملك فرنسا ، رد عليها قائلا : « أننا وقد أحطنا علما بأن آل ايسته لم يرتاحوا أبدا لمصاهرة آل بورجيا ، **فأننا من جانبنا لم نعد نعتبر المادونا لوكريشيا زوجة حقيقية للدوق ألفونسو » !**

بيد أن لوكريشيا ـ برغم علمها بهذا الخطر الذى بدأ يهدد مستقبلها ـ اتجهت بكل أفكارها ومواهبها الى معاونة سيزار ، الذى كان ـ فى ذلك الوقت ـ يبذل آخر محاولاته اليائسة ، للاحتفاظ بمملكته التى اخذت تنحل وتنهار فعلا ، كالثلج الذى يذوب ثم يتبخر ، اذا ما طلعت عليه الشمس .

فما كاد ينقضى أسبوعان على وفاة البابا ، حتى كانت عائلة « مونتفليتر » قد عادت منتصرة الى (أيربينو) ، وعاد « جيوفانى سفورزا » الى (بيزارو) ، كما عاد آل بجليونى الى (بيريجيا) ، وآل فارانو الى (كوميرينو) ..

أما روما فأنها ما لبثت أن ازدحمت بأولئك الذين كان سيزار قد طردهم وشردهم ، أو قبض عليهم وسجنهم .. أو ـ فى القليل ـ كانت قلوبهم قد امتلأت خوفا على أنفسهم من غدره ومكره ، ومن الموت الذى كان يسقيه حتى لأقرب

الأقربين ، فانطلقوا من وجهه هاربين .. فعاد آل أورسيني الى المدينة ، ووصل اليها « بروسبيرو كولونا » من نابولى ، و «سلفيو سافيللى» من فرنسا.. وفتحت أبواب السجون ، وانطلق منها سيل جارف من المعتقلين ، ثائرين مزمجرين ، مطالبين بالثأر ،لا من « ذلك المجرم الأسبانى اللعين » فحسب ، وأنما من الأسبانيين أجمعين !

***

ومع ذلك ، فعندما انعقد مجمع الكرادلة لانتخاب البابا الجديد ، كان صوت الأحد عشر كردينالا الأسبانيين ، مازال مسيطرا على الموقف ، مما أدى الى خيبة الآمال التى كان «ديللا روفيرى» قد عقدها للوصول ـ هذه المرة ـ الى عرش البابوية.. ومما أحبط مساعى الكردينال الفرنسى «أمبواز» ، **وأدى ـ فى النهاية ـ الى انتخاب الكردينال « بيكولومينى » .. وهو الرجل الكبير السن ، العطر السيرة ، الذى لم يكن يمثل حزبا من الأحزاب ، ولم يتلق معاونة من أية قوة خاصة** .. وانما كان مختارا من الله لأن يجلس على كرسى القديس بطرس ، باسم **البابا « بيوس » الثالث** .

وحينئذ ، خيل لسيزار أن الخطر الذى يتهدده قد زال ، وأن فى امكانه أن يسترد سلطانه فى عهد البابا الجديد ، الذى كان معروفا بطيبة القلب .. وقد عزز من آماله أنه كان يعتقد أن ملك فرنسا سوف يحميه ، وأنه مازال على استعداد لأن يحالفه ويحابيه .. وكان سيزار ـ فوق هذه الأوهام التى صورها له خياله ـ على تمام الثقة من أن أسبانيا كذلك ستقف الى جانبه ، فلا يلبث أن يرفع رأسه فى ربوع مملكته المنهارة من جديد .. **الا أن ثقته سرعان ما تبخرت ، حين أعلن « جونزالو دى كوردوبا » أن كل الأسبانيين الذين**

يظلون تحت أمرة ((سيزار بورجيا)) ، سيعتبرون من الخونة ويستحقون الموت !

وهكذا انفض جيش سيزار من حوله ، وتكاثر أعداؤه عليه مطالبين بمحاكمته عن كل الجرائم التى ارتكبها فى عهد أبيه .. وأصبح معتقلا فى قلعته ، ومهددا ـ فى كل لحظة ـ بانتقام أعدائه منه ، لولا أن بعض الكرادلة الأسبانيين ، الذين أشفقوا عليه من مصيره الرهيب ، خرجوا به متنكرا تحت جنح الليل الى قلعة سان أنجيلو .. وهنالك أقام تحت حماية البابا الجديد .

الا أن بيوس الثالث ما لبث أن مات ، بعد جلوسه على عرش البابوية بسبعة وعشرين يوما .. وكانت تلك المدة ـ على قصرها ـ كافية لكى يعزز ((جيليانو ديللا روفيرى)) مركزه ، ويشق طريقه نحو تحقيق أمله العتيد .. وكان من وسائله الى هذه الغاية ، أن تظاهر بالصفح عن سيزار ، وبث الطمأنينة فى قلبه ، ووعد بأطلاق سراحه ، وبمعاونته على استرداد كل قوته ، والاحتفاظ بكامل سطوته التى كان يتمتع بها على عهد أبيه ، **لو أنه ضمن له أصوات الكرادلة الأسبانيين فى انتخابات البابوية !**

واذ كان سيزار أسيرا ، كسيرا ، خائفا ، متلهفا على أى بصيص من الرجاء ، ينير له سبيل الخروج من تلك الظلمة التى أصبحت تكتنفه ، فقد صدق وعود الد أعدائه واعداء أبيه ، وبذل كل جهده لدى الكرادلة الأحد عشر ، حتى أعطوا أصواتهم فى يوم الأنتخاب ((لجيليانو ديللا روفيرى)) . فما لبث أن أذيع ـ فى ٣١ أكتوبر سنة ١٥٠٣ ـ أنه اختير بالأجماع للجلوس على عرش البابوية باسم **((يوليوس)) الثانى ..**

***

وما ان تم اختيار البابا حتى تبين لسيزار أنه ـ اذ وقع على صك موافقته على انتخابه ـ انما وقع حكما على نفسه بالأعدام.. **فما مضى أسبوع على هذا الانتخاب ، حتى أصدر البابا أمره باعتقاله ، وعدم السماح له بمغادرة قلعة بورجيا !**

وسواء كان ذلك مصادفة أو عمدا ، فقد تبين سيزار أنهم وضعوه فى ذات الغرفة التى سبق له أن قتل فيها «ألفونسو بيسيجلى» ! .. وبعد أن ظل فى سجنه ثلاثة أشهر ، عرض أن يسلم البابا كل قلاعه ، فى نظير أن يرد اليه حريته .. وقد وافق البابا على ذلك ، الا أنه بدلا من أن يطلق سراحه ـ كما وعده ـ **سمح بخروجه من قلعة بورجيا ، لكى يعتقله بعد ذلك ، فى قلعة (ديللا روفيرى) فى (أوستيا) !**

على ان روما ما لبثت أن صحت ـ فى صبيحة يوم ٢٨ أبريل سنة ١٥٠٤ ـ على مفاجأة جديدة : اذ أشيع أن « سيزار » قد هرب من (أوستيا) ، ولجأ الى (نابولى) ..

الفصل الثامن والعشرون

• **استقبل** آل ايسته ـ فى فيرارا ـ انباء فرار « سيزار بورجيا » بكثير من الحذر والتحفظ . بيد أن « لوكريشيا » لم تحاول قط ان تخفى فرحتها ، وشاركتها حاشيتها ما تولاها من اغتباط . **وتحدث السفراء الاجانب ـ فى رسائلهم ـ عن استعادتها نضارتها وفتنتها ، فكأنما استردت شبابها** .. وساعدتها ثياب الحداد على ان تبدو اكثر جاذبية مما كانت فى أى يوم من الايام !

وكان هناك سبب آخر لما غمرها من طرب ، فان

« فرانشيسكو جونزاجا » قام بزيارة (فيرارا) ــ اذ ذاك ــ فرحبت به « لوكريشيا » ، مسلطة عليه كل ما لفتنتها من سلطان . وكانت عشر سنوات قد انقضت ، منذ رآها «جونزاجا» آخر مرة . ومع ما كان يحمله من كراهية لاسم « بورجيا » ، ومن حقد لسيزار .. **وبالرغم من كل ما كان يصل الى علمه عن فضائح لوكريشيا ، فلم تنقض أيام قلائل ، حتى كان معها فى المرحله الاولى من مغامرة غرامية رعناء ..** ساعد على التمادى فيها ، غياب « الفونسو ديسته » فى رحلة الى اسبانيا وانجلترا .

ومهما يكن من مفاتن «لوكريشيا» البدنية ، ومن تمرسها فى فنون الهوى ، فلا بد انها اوتيت سحرا خفيا كان يمكنها من فرض سلطانها على عسكريين طبعت نفساهما على حب اللهو والشغف بالملذات الدنيا ، مثل « الفونسو ديسته » و « فرانشيسكو جونزاجا » . **وقد بلغ من سلطانها على الأخير ، انه لم يكن قد مضى اسبوع على وصوله الى (فيرارا) ، حين قبل ان يحتضن قضية ((سيزار بورجيا)) ..** ولكنها فى تحمسها لغواية « جونزاجا » من أجل اخيها ، لم تلبث ان نسيت نفسها ، فجرفها التيار فى آخر مغامرة غرامية لها ، حتى انها ظلت سادرة فى هوى « جونزاجا » سنوات ، برغم قبحه ودمامته !

وعندما وصل « سيزار » الى (نابولى) ، لم يتوان « جونزاجا » عن ان يكتب اليه مهنئا !

***

والعجيب أن سيزار استقبل فى بلاط (نابولى) بكثير من التسامح والصفح ، من جانب آل اراجون الذين ارتكب فى حقهم أبشع جرائمه ، لاسيما اغتياله الأمير ألفونسو ..

فأقام ـ أول الأمر ـ فى قلعة (نيوتو) ، حيث كان يحكم « جونزالو » باعتباره القائد الأسبانى المنتصر ، ثم انتقل ـ بعد ذلك ـ الى قصر أحد الكرادلة الذين بقوا على وفائهم لأبيه . وهنالك بدأ يستعيد بعض اطمئنانه وثقته بنفسه ، بل بعض كبريائه وصلفه السابقين ..

الا أن الجو ما لبث أن تغير فجأة ضده .. اذ ما كانت « سانشيا » لتغفر له قتل أخيها أمام عينيها ، ثم اعتقالها هى ذاتها فى سان أنجيلو .. وكانت قد اصبحت بمثابة الملكة غير المتوجة فى بلاط (نابولى) . ومما زاد موقفه سوءا وخطرا ، أن أسرة اراجون ما لبثت أن فوجئت بزيارة دوقة جانديا ـ أرملة الدوق القتيل جان بورجيا ـ فهى لم تكد تسمع بوجود سيزار فى نابولى ، حتى سعت الى هناك مطالبة بالثأر من قاتل زوجها .

ولم يكن قد مضى شهر واحد على لجوء سيزار الى حماية آل اراجون ، حين جاءه رسول يستدعيه فجأة ـ أثناء الليل ـ الى قلعة نيوتو .. **وما خامره شك فى أنه ذاهب لمقابلة ودية مع الحاكم الأسبانى «جونزالو دى كوردوبا »** .. وقد استقبله جونزالو هناك بالترحيب فعلا ، وأعد له وليمة عشاء فاخرة ، أخذ فى أثنائها يتباحث معه فى الشؤون الحربية ، كما كان العهد ابان مجد سيزار وسلطانه .. **حتى اذا انتهت المقابلة ، وتأهب للخروج ، اذا بالحرس الواقف عند باب القلعة ، يستوقفه ، ويقبض عليه !**

وفى ١١ أغسطس سنة ١٥٠٤ ، سيق سيزار ـ باعتباره أسيرا أسبانيا ـ الى سفينة أقلعت به الى جزيرة (اسكيا) ، حيث قضى بقية عمره مع الأثمة ، والمجرمين ..

وهكذا كانت خاتمة هذه الأسرة الدنسة ، التى كانت

ياتها وصمة عار فى جبين الكنيسة الكاثوليكية ، وكانت نهايتها عبرة لكل أولئك الذين يتخذون من خدمة الله ستارا لخدمة الشيطان .

الفصل التاسع والعشرون

• كان الثلج ينهمر فى (فيرارا) ، فى صبيحة ٢٥ يناير سنة ١٥٠٥ .. ولكن انهماره لم يمنع القوم من ان يصطفوا فى الطرقات ، ليظهروا ولاءهم لآل ايسته .. وكان المرض قد برح بدوق ايركول ، بينما كان « الفونسو » لايزال فى رحلته ، فتولت « لوكريشيا » مع الكردينال « ايبوليتو » شؤون الامارة ..ثم قضى الدوق نحبه ، وعاد « الفونسو » ، فحدد ذلك اليوم لتتويجه .

وبدت « لوكريشيا » فى اوج اشراقها وجلالها ، وهى تقف فى شرفة القصر ، فى مواجهة الكاتدرائية ، ترقب الحفل ، ونتف الثلج تتساقط على وجهها الذى لم تخلف فيه المآسى ولا الدسائس ولا الآثام اثرا..وكانت قد انقضت اثنتا عشرة سنة على اليوم الذى وقفت فيه ، فى شرفة مطلة على ميدان (سان بيتر) ، ترقب جموع الرومانيين وهم يرحبون بأبيها رئيسا للمسيحية ! .. اثنتا عشرة سنة من المغامرات ، والمؤامرات ، والمآسى ، للاحتفاظ بالتاج لآل بورجيا !

وكانت قد انقضت ثمانية اشهر على نقل « سيزار » الى اسبانيا ، ليكون بمثابة بيدق الشطرنج فى يد الملك فيرديناند ، يستغله فى مساومة البابا والامبراطور .. فراح — فى البرج العالى الذى سجن فيه — يواجه النهاية المحتومة .

***

ودوت الابواق ، ففتحت أبواب الكاتدرائية ، وظهــــر « الفونسو » فى الميدان ، يسير فى موكب يتقدمه كبار القوم ، ويتبعه امراء آل ايســته .. حتى اذا انتهى الحفل ، دوت الابواق ثانية ، وخرج « الفونسو » فى موكبه المهيب ، فسار فى تؤدة نحو القصر ، وسط هتافات الشعب .

وعندما اقترب ، هبطت لوكريشيا الدرج فى جلال ، لتكون اول من يقدم اليه الولاء والطاعة .

وركعت عند قدميه ، فأنهضها فى رشاقة ، وأعلنها للناس دوقة وزوجة اثيرة .

ثم اخــذ بيــدها ، وقادها الى داخل القصر ، بينما كانت اجــراس (فيرارا) تدق ، فيختلط رنينــها بهــدير آلاف الاصوات الــهاتفة : **((ليحيا الفونسو .. ولتعش لوكريشيا ديسته)) !**

وكلوكريشيا ديســته .. عاشت لوكريشيا بعــد اندثار مجد بورجيا !

تمــــت

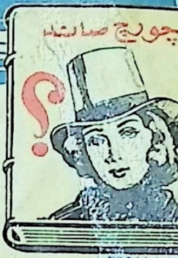

مطبوعات كتابي

تقدّم لك فى أعدادها القادمة

مجموعة منتقاة من شوامخ الكتب العالمية، لأشهر المؤلفين، مترجمة عن شتى اللغات، بأقلام أقدر المترجمين ..

انها السلسلة العربية الوحيدة التى تضع بين يديك الترجمة "الأمينة" الكاملة لأعظم ما أنتجه الفكر الانسانى فى جميع العصور .. فى طبعات ثمينة الجوهر، فاخرة المظهر، زهيدة الثمن !

تابع الاعلانات عن أعدادها القادمة ومواعيد صدورها، على صفحات «كتابى».

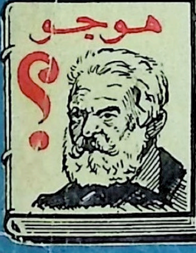

مطبوعات
كتابى
يصدرها : حلمى مراد